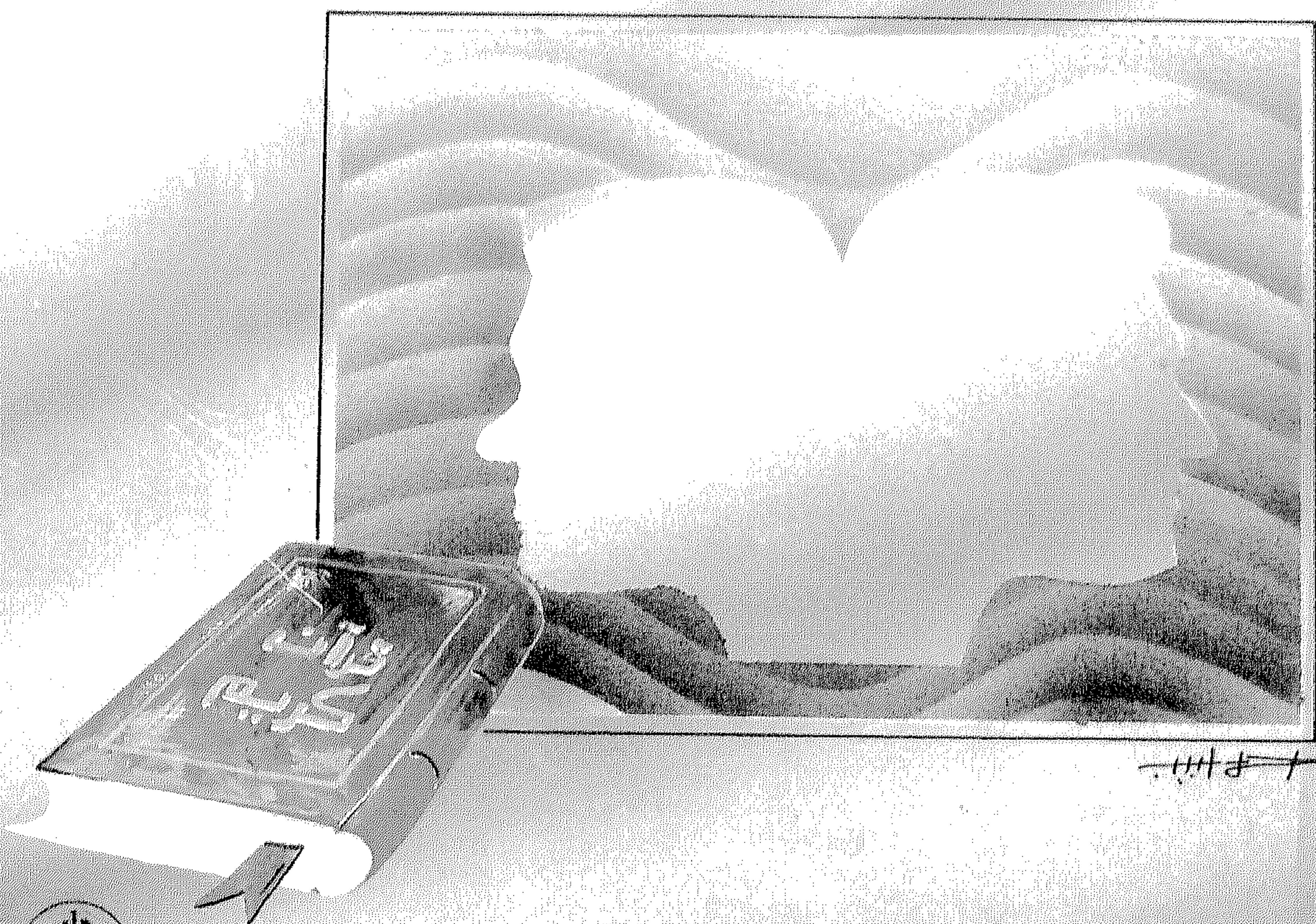


# فِقْرُ الشَّاتِخِ

فِي ضَوْءِ

أَرْزَمَةِ الْمُسْلِمِينَ الْحَضَارِيَّةِ

الدَّكْتُورُ عَبْدُ الْحَلِيمِ عويس

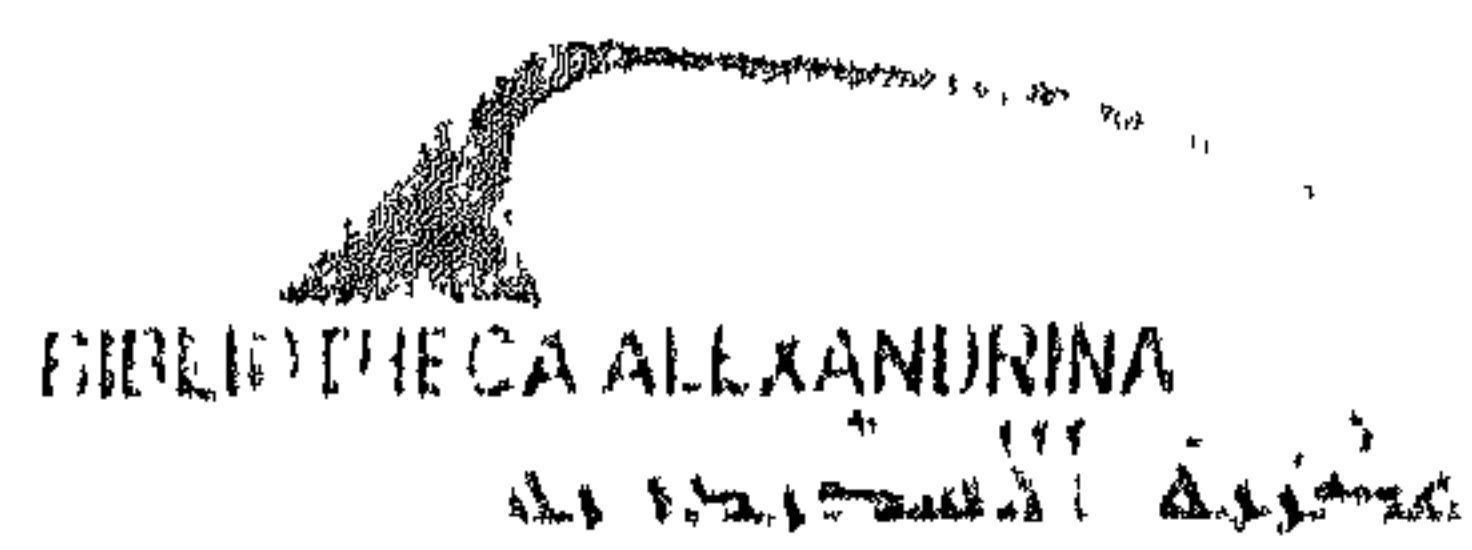




اهداءات ٢٠٠٢

شركة سوزلر للنشر

القاهرة



# فقر الثاني

في ضوء  
أزمة المسلمين الحضارية

كافة حقوق الطبع محفوظة  
الطبعة الأولى  
١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

دار الصحوة للنشر والتوزيع - القاهرة

الإدارة: ٧ ش السراى - أول النيل ت. فاكس: ٩٨٧٩٢٤  
الفرع: حدائق حلوان - بحوار عمارات المهندسين ت ٣٧٤٠٠٧١

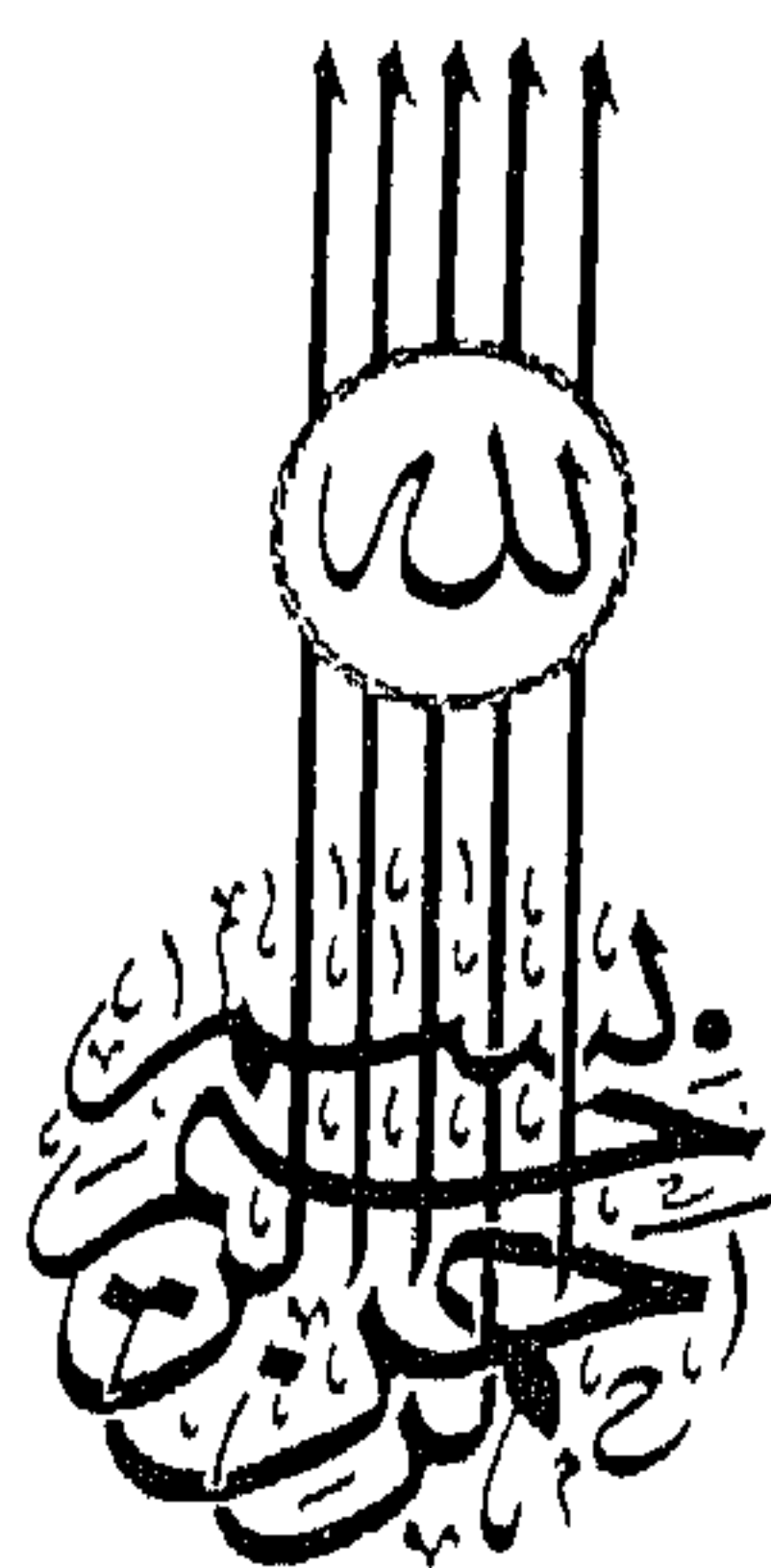


# فِقْهُ الشَّائِكِ

فِي ضَوْءِ

أَزْمَةِ الْمُسْلِمِينَ الْحَضَارِيَّةِ

الدُّكْتُورُ عَبْدُ الْحَلِيمِ عَوَيْشٍ



## مقدمة

ليس التاريخ بالنسبة للأمم مجرد ماضٍ انتهى، بل هو بالنسبة لكل الأمم الحية جزء من النهر الكبير الذى تتدافع بين شطآنه أمواج حضارتها .. فيكاد الماضى ينسكب فى الحاضر، ويكاد الحاضر يذوب بين معبرى الماضى والمستقبل ..

وليس التاريخ مجرد أحداث جامدة إلا لهؤلاء الذين فقدوا وعيهم بذاتهم وحضارتهم ووقفوا عراة يتسولون من هنا وهناك بعض فتات الحضارات المحيطة بهم ...

إن التاريخ هو الكنز الذى يحفظ مدخرات الأمة فى الفكر والثقافة والعلم والتجارب، وهو الذى يمدّها بالحكمة التى تقتضيها رحلتها فى الزمان تجاه قلب الأحداث.

والأمة التى لاتحسن الفقه بتاريخها، أعنى بهذا الرصيد المذخور لديها هى أمة فاقدة للحس التاريخى، مريضة بحالة غيبوبة عن الذات، تائهة - فى النهاية - عن حقيقتها ودورها ومعالم طريقها إلى المستقبل الذى أعدها له القدر الحكيم.

إن تباين الأمم لم يأت عبثاً، وإنما جاء لتصنع كل هذه الأمم - بتباينها وتعدد أنماطها وعطاءاتها - رحلة البشرية فى التاريخ، ولتؤدى - كلها - الغاية الإلهية المبتغاة من هذه الرحلة التى يخيّل لبعضهم -لقصور فى مداركهم وبلادة فى حسهم الحضارى- أنها رحلة بلا غاية، وأنها لامعنى لها .. ولا حكمة تحكم أشواطها ..

إن (فقه التاريخ) ضرورة لكل أمة تريد أن يبقى لها دور متميز في التاريخ، وهو بالنسبة لأمتنا الإسلامية شرط من شروط وجودها .. فنحن -في مستوى العقيدة والعبادة والحياة الاقتصادية والاجتماعية - موصولون بركن من أركان تاريخنا نطلق عليه اسم (السيرة النبوية وعصر الراشدين) .. ونحن نعتبر هذا الجزء من تاريخنا -على الأقل- حياة تعيش في وجداننا ودماً يجرى في عروقنا، وهو بعض عقلنا ووجداننا، وهو رسالتنا الحضارية ...

وإذا ما استثنينا هذا العصر الذي يريد بعضهم حصار تاريخنا النموذجي فيه، بل يريدون تشويهه أيضاً دون اعتبار للطبيعة البشرية.. إذا ما استثنينا هذه الفترة .. فنحن -أيضاً- لانستطيع إغفال ما أعطته لنا القرون الأخرى من علوم إسلامية فقهية وقرآنية وعلوم لغوية وأدبية وتجريبية، وعلوم الدفاع عن العقيدة بمناهج كلامية، ولا نستطيع إغفال الفتوحات الإسلامية، ولا صفحات الأمويين والعباسيين والمماليك والأيوبيين والعثمانيين... على الرغم من وجود أخطاء لهم.

إنهم تجربتنا في التاريخ وعبرتنا وإيجابياتنا وسلبياتنا وبعض شخصيتنا، ولا نستطيع أن نمزق صفحتهم وننتهي إلى فراعنة أو قرطاجيين أو طورانيين أو روم أو فرس أو غيرهم ممن قطع الإسلام أنسابنا بهم...

إن أبا بكر الصديق العربي وسلمان الفارسي وصهيبا الرومي وصلاح الدين الكردي ومحمد الفاتح التركي وسيف الدين قطز المملوكي .. إن هؤلاء هم أهلي وأرحامي وكياني الحضاري أكثر ألف مرة من كل (الفراعنة) الذين حكموا أجدادي المصريين المساكين، وبنوا على أكتاف شعبي المصري المقهور المجاهد مقابرهم الفخمة التي دفنوا فيها وسموها الأهرامات واعتبرت



من عجائب الدنيا.. وهى - كما سماها شوقى - (من بناء  
الظلم)..!!

\* \* \*

إن الوعى بتاريخنا وحضارتنا الإسلامية هو الطريق لاستئناف  
الأمة الإسلامية لدورها القيادى.. أما التبعية - على غرار كمال  
أتاتورك وتلميذه أنور السادات ومن على شاكلتهما وهم كثيرون  
للأسف الشديد - فمن شأنها أن تحولنا إلى شعوب مستهلكة  
مدينة، وأن تحول بين أمتنا وأى استقلال أو إبداع، وأن تحفظ  
تخلفنا وتمزقنا على النحو الذى قدمته لنا صورة المسلمين  
والعرب فى الأحقاب الأخيرة التى ظنوا فيها أنهم تحرروا من  
الاستعمار ونالوا الاستقلال فوجدوا أنفسهم يعانون من ضياع  
ربما. لم يحسوا بثقله على هذا النحو أيام كانوا تحت قبضة  
الاستعماريين السياسى والعسكرى فى القرنين الثالث عشر ومعظم  
الرابع عشر الهجرى.

\* \* \*

وفى هذا الكتاب نطرح هذه القضية الخطيرة.. قضية (فقه  
التاريخ) من وجهة نظر إسلامية تقود إلى (الوعى بالذات)  
وتأصيل هذه الذات بحيث نطرد عنها كل التفسيرات التى تقود  
إلى عناصر دخيلة مسقطه على تاريخنا - (وذاقتنا) من الشرق  
أو الغرب..

ونحن نحمد الله على أن العقل الإسلامى على الرغم من كل  
ما يؤخذ عليه- قد تقدم خطوات كبيرة فى وعيه بحضارته  
وفقه بتاريخه.. وقد ظهرت فى هذا السبيل نماذج متعددة  
وقفنا عند بعضها لتأريخ هذا التطور فى النظرة إلى التاريخ،

وهو التطور الذى نأمل أن يضطرر حتى يكون لإطارنا التاريخى وتجربتنا الحضارية الإسهام الفعال- والمؤثر بقسماته ومعالمه- فى مسيرتنا الحضارية نحو المستقبل الذى يمشى بجناحين معا: الأصالة.. والتحديث..

وعلى الله قصد السبيل ومنه وحده السداد والتوفيق.

**أ.د عبد الحلیم عویس**

**القاهرة الإسلامية**

الفصل

الأول

**البحث التاريخي في ضوء الرؤية الإسلامية  
«مع دراسة نماذج معاصرة»**





تتميز الحضارة الإسلامية بانطلاقها من ركائز ثابتة محددة، قد يقترب منها المسلمون -في بعض العصور- فيمثلونها خيراً تمثيل، وقد يتعدون عنها فيصحبون ممثلين لها تمثيلاً نسبياً.

وقد احتل التاريخ منذ ظهرت هذه الحضارة على الأرض مكانة أساسية في أصول هذه الحضارة ... وإن القرآن الكريم - وهو المصدر الإسلامى الأول - ليحفل بمئات الآيات التى تعالج قضايا التاريخ، وتستخلص منها القيم الإنسانية والتوجيهات الحضارية التى تفيدها رحلة الأمم السابقة فى مراحل قوتها وضعفها ...

والحقيقة أننا مضطرون لأن نسجل أن المسلمين - فى رحلة حضارتهم - قد وفقوا فى الانطلاق من القرآن الكريم - مصدرهم الأول - فى علوم كثيرة أطلقوا عليها اسم (علوم القرآن) .. كما أنهم قد اعتمدوا على القرآن وانطلقوا منه فى علوم أخرى كعلوم اللغة العربية ... بيد أنهم - مع هذا الخط البيانى المتقدم جداً - فى علوم القرآن واللغة بالنسبة لعصورهم - لم يكن خطهم البيانى مساوياً أو قريباً من خط العلوم السابقة فيما يتصل بفقههم لعلوم تفسير الحياة والتاريخ ...

وحتى مع ظهور بعض الومضات المتألقة لدى مفكر عظيم كابى محمد على بن حزم (٤٥٦هـ) فى كتابه (الفصل فى الملل والأهواء والنحل) ومفكر عملاق مثل أحمد بن عبد الحلیم بن تیمیة (٧٢٨هـ) .. وأخيراً لدى أكبر العلماء على الإطلاق فى فقه التاريخ قبل العصر

الحديث مؤرخنا العبقري عبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨هـ)...

حتى مع ظهور هذه الومضات وغيرها فإن الخط البياني في فقه المسلمين للحياة والتاريخ بقي متخلفاً لا يتساقط إطلاقاً مع التكثيف القرآني لقصص الأمم البائدة، ولا ينسجم مع هذه المساحة التي أعطاها القرآن لرحلة الصراع بين الحق ويمثله (الأنبياء)، وبين الباطل ويمثله (أعداء الأنبياء) المحافظون على سيطرة الكفر والفساد، والواقفون ضد العدل والحرية الإيمان.

ولقد انشغل المسلمون بدلاً من البحث في فقه التاريخ - بعلوم كلامية وافتراضات خيالية وصراعات مع أشباح ماضية لم يعد لها وجود... وحتى اللغة - وليست العقيدة أو الفقه فحسب - دخلها من هذا الترف العقلي ما أفسد رواءها وعقد بساطتها وشوه جمالها.. فكان هذا الامتداد الجدلي على حساب فقه التاريخ والحياة.. وبالتالي ضاعت ومضة ابن خلدون - كما ضاعت الومضات الأخرى - فلم يكد يظهر فقه موضوعي للتاريخ يعتمد منهجية علمية دقيقة إلا في العصر الحديث عندما بدأ المسلمون يفيقون إلى موقفهم في الحضارة بعد غفلة طالت...

ويعتبر العلامة المهندس (مالك بن نبي) - من وجهة نظري - أبرز معلم وضىء في هذا المنعطف الجديد الذي يمثل الطريق الصحيح لفقه هذا الركن الأساسي في القرآن الكريم، وهو فقه الحياة والتاريخ على ضوء التصور الإسلامي الصحيح.

### المسلمون والتاريخ في العصر الحديث :

مما لاشك فيه أن الضمير الإسلامي قد عانى الكثير وهو يجد رقعة العالم الإسلامي في العصر الحديث تكاد تظللها بالسواد جيوش الاستعمار الصليبي والأوربي.. وما فشل فيه صليبيو (بطرس الناسك) -



بعد جهد - نجح فيه - صليبيو المدفع والدبابة والمطبعة - دون جهد - ولقد أدرك المسلمون أن المعركة الجديدة ليست كالمعارك السابقة ... لقد كانت الحضارة في جانبهم في كل المعارك السابقة ... أما في هذه المعركة فقد كانت الحضارة لدى الطرف الآخر ... لقد انهزم المسلمون عبر تاريخهم في معارك عسكرية كثيرة - شأنهم شأن كل البشر - لكن الهزيمة في لقائهم الأخير مع الحضارة الأوروبية كانت مصحوبة بمرارة خاصة، إذ إنهم أدركوا أن ثمة تحولا جديدا ظهر في التاريخ ، وأن الأمر ليس أمر هزيمة عسكرية ... فحتى لو أخرجوا عدوهم وانتصروا عليه عسكريا فإن التحدي يبقى أكبر من ذلك (١) .. وكان هذا هو «القلق» الذي أصاب الوجدان أو الضمير الإسلامي الواعي ... على الرغم من وجود دجالين حاولوا الضحك على شعوبهم وعلى التاريخ ، وصوروا الأمر على أنه معركة عسكرية .. وأن الانتصار فيها وتحقيق الاستقلال العسكري هو أهم شيء .. مع أن هذا الانتصار - أو الاستقلال - لا يعدو أن يكون عند أحسن الفروض - جزءاً من أجزاء صراع حضارى معقد .

وقد تساءل الضمير الإسلامي - وكان من واجبه أن يتساءل حول تلك الأسباب التي وصلت به إلى هذا المنحدر ؟ وكيف استطاعت الحضارة الأوروبية - في غفلة منه - أن تصل إلى ما وصلت إليه ؟ وبالتالي : ما العوامل التي أغفلها والطرق التي أهملها حتى اتسعت الشقة بينه وبين خصومه الحضاريين ؟ - وقد تصدى للإجابة على هذه

(١) إذا كانت وسائل المسلمين في عصر الرسول وخلفائه الراشدين أقل من وسائل أعدائهم، فقد كان لدى المسلمين شعور بالتموق الحضارى والفكرى والسلوكى . (وهذا هو المهم).

الأسئلة كثيرون مخلصون - ودعنا من غير المخلصين الذين سرقته  
الحضارة الأوروبية أو ذابوا فيها فهؤلاء لا يهمننا أمرهم ، لكن هؤلاء  
المخلصين - مع ذلك - انقسموا في إجاباتهم إلى فريقين:  
فريق رافض للحضارة الأوروبية بالجملة... يشجبها كلها ولا يرى  
فيها خيرا ، دون أن تكون لديه رؤية إبداعية نقدية تعرف حدود الأخذ  
والرفض الحضاريين ، وتعرف ما يؤخذ لينمى وما يؤخذ ليقتل ،  
وتعرف الفرق بين التكنولوجيا وفلسفة التكنولوجيا وأهدافها ... وجل  
هذا الفريق لم يفهم حتى تلك الوسائل الإنسانية العامة . والتي اتكأت  
عليها أوروبا أيضا لكي تحرز تقدمها ، ولم يحاول هذا الفريق - مع  
إخلاصه الشديد وسلوكه الشخصى الحميد غالبا - أن يتعب نفسه فى  
جدلية الحوار بين الحضارات ولا فى الفقه بالسنن الكونية ، ولا فى  
محاولة جادة للقفز من فوق الجزئيات المتناثرة والرؤى الفرعية إلى  
الجمع والتركيب والرؤية الكونية والاجتماعية الشاملة.. وقد ساعد  
هؤلاء على عجزهم وقصورهم تخصصهم الحرفى فى بعض العلوم  
الجزئية الموسومة بالدينية... فالفقيه يرى الحياة محصورة فى تلك  
الأحكام الفقهية المتناثرة دون أن يربط فقهه بالتطورات الاجتماعية  
والسنن التى تحكم المجتمعات ، والمحدث محصور فى دائرة الجرح  
والتعديل ... والمفسر - كمؤرخ الحوليات - يشرح (بضم الياء  
وكسر الراء وتشديد هاء) الآية تشريحا جزئيا (١) دون أن يقف كثيرا

---

(١) على استحياء بدأ التفسير الموضوعى للقرآن يظهر فى أعمال  
أساتذتنا الشيخ محمد عبد الله دراز فى كتابه (النبأ العظيم) ، والشيخ  
محمود شلتوت فى تفسيره ، والشهيد سيد قطب فى ظلاله ، والشيخ  
محمد الغزالي فى خطراته ومحاوره وتفسيره .

عند استخلاص القوانين والسنن من خلال الآيات التي تمثل شرائح حضارية متناظرة.

وحتى تلك الآيات القرآنية المتعلقة بالأمم السابقة وبالسنن الكونية عولجت - والأحاديث مثلها - بالمنهج نفسه.. - وهذا هو الفريق الأول ، وهو ينتظم أكثر العاملين في الحقل الإسلامى والفكرى ، وأعضاء هذا الفريق قدموا للأمة خدمة عظمى لاتنكر ، فهم نقلة جيدون للعلوم الإسلامية ، وهم حفظة لها ، لكن دورهم يحتاج إلى تطوير حتى يحقق هدفه الرئيسى : وهما الاجتهاد المستمر لمواجهة التحديات ، وإيجاد البديل والفاعلية الاجتماعية والحضارية الشاملة .

وأما الفريق الثانى من المخلصين فهم تلك القلة المبدعة التى تحمل هم الحضارة الإسلامية على كاهلها ، وبالرغم من تخصصها فى فرع من الفروع ، فهى تمتد الطرف إلى الأمة الإسلامية عبر الزمان والمكان ، وترى أنه لابد من استئناف دورها فى التاريخ ، وأن ذلك لن يتحقق إلا بالإجابة الواعية الصحيحة عن التساؤلات المقلقة للوجدان الإسلامى ، وصولاً إلى وضع القطار فوق القضبان الصحيحة ... فلا يمكن مهما نبغ النابغون فى بعض العلوم والجزئيات - أن تقوم حضارة إلا إذا كان ثمة فقه صحيح بالسنن الاجتماعية والكونية ، وكانت هناك رؤية شاملة وغايات عليا .. ولن تستطيع المعارف المتناثرة وحدها أن تؤدى دورها إلا إذا توافرت لها شروط التوظيف الحضارى المؤدية للفاعلية والبناء ... ومن هذه الشروط :

١ - أن تفهم الجماعة الإسلامية نفسها وموقعها فى الحضارة ومسئوليتها نحو التاريخ والبشرية ...

٢ - أن تفقه الجماعة - أو الأمة - دينها وطبيعته الامتدادية



## والحضارية .

٣ - أن يربط التخصص بالغايات الإسلامية العليا ، وأن تكون مسئولية الأمة نحو التاريخ والحضارة الإنسانييتين مغروسة في وجدان كل باحث وعامل وعالم ، فقيها كان أو طبيباً أو مهندساً أو مزارعاً أو مفسراً أو محدثاً أو تاجراً .

٤ - أن تزول الحواجز القائمة بين العلوم المسماة بالدينية أو المعاشية ، فكل ما ينفع هو دين ودنيا وكل ما يضر هو عبء على الدنيا والدين ، وباستثناء الحد الأدنى من الدين فكل العلوم فرض عين إذا تحددت بأشخاص ، وفرض كفاية على مجموع الأمة .

٥ - أن يعود المسلمون إلى الارتباط بالسنن الكونية ، وفقه قوانين الحضارة ، وتعميق رؤيتهم للتجارب التاريخية التي سردها القرآن ، وللتجربة النموذجية التي قدمها الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولتجربتهم الحضارية خلال أربعة عشر قرناً في التاريخ ، ولتجارب الأمم من حولهم ، ويؤمنوا - بلا ريب - أنهم لن يستطيعوا القفز فوق السنن الإلهية ، ولن يقودوا الحضارة إلا بمؤهلات القيادة ، وفي ظل مناخ يجب أن يسعوا لتهيئته وتوفير شروطه .

ومن هذه المنطلقات هب الفريق الثانى من المخلصين المسلمين يسعى إلى إعادة بناء التصور الإسلامى - كما جاء فى الإسلام - ويسعى لإقامة أبنية فكرية ذات مضامين قادرة على تكوين رؤية صحيحة لدى المسلم تجاه الحضارة والتاريخ وما يتصل بهما من قضايا التقدم والتأخر وعوامل النهوض وعوامل السقوط ...

## الاتجاه الإسلامى المعاصر فى التاريخ:

ذكرنا أن الاتجاه الإسلامى النقدى الشمولى للتاريخ لم يظهر فى

الكتابات الحديثة إلا فى مواجهة تلك الأزمة الحضارية التى أحس بها الإنسان المسلم عندما التقى بخيوله ورماحه ووسائله البدائية مع مدافع أوروبا ومطابعها، وواجه سيطرتها - بسهولة - على خريطة العالم الإسلامى .

ومن هنا فقد اتجه البحث لدى كل مخلص - مؤرخاً كان أو عالماً طبيعياً أو فقيهاً - للبحث عن أسباب تأخر المسلمين وأسباب تقدم أوروبا...

ومن الوقوف عند هذا السؤال - بل تحت هذا العنوان نفسه - ظهرت مجموعة من الكتب والدراسات...

وبالإضافة إلى هذه البحوث التى اتجهت اتجاهها مباشراً لمعالجة القضية وجد اهتمام لدى كثير من الباحثين بحيث وجدنا آراءهم وتحليلاتهم - من كتاباتهم المختلفة - تعالج هذا الجانب بطريقة أو بأخرى .

إن القضية لم تقف عند (منظر) يجعل القضية همه الأكبر مثل (مالك بن نبي) أو عند تلامذته المتأثرين به تأثراً مباشراً والمنتشرين على امتداد الساحة العربية، ومنهم الدكتور عمار طالبي (جزائري) والأستاذ عبد الوهاب حمودة (جزائري) والدكتور محمود محمد سفر (سعودي) والدكتور عماد الدين خليل (عراقي) والدكتور جودت سعيد وجماعة (ندوة مالك بن نبي) فى لبنان وسوريا وعلى رأسها الأستاذ عمر مسقاوى .

بل إنها رشحت فى كتابات كثيرين من أمثال شكيب أرسلان، ومحمد إقبال، وجمال الدين الأفغانى، ومحمد عبده، والمفكر المسلم إيتين دينيه، ومحمد أسد (ليو بولدفائيس) وعبد الرحمن الكواكبي وأبى الأعلى المودودى، والشهيد سيد قطب، والمفكر الهندى محمد تقى

الأميني، والعلامة أبي الحسن الندوي، والداعية الشيخ محمد الغزالي، والدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، والأستاذ أنور الجندى ... والأستاذ محمد جلال كشك ... وغيرهم.

لقد بدأ اتجاه جديد يشق طريقه في الكتابة التاريخية في مواجهة الأزمة الحضارية التي تعيشها الأمة، والتحديات التي تواجهها.

### المعالم الحضارية في هذا الاتجاه :

هذا الاتجاه بإجمال يؤمن بأهمية دور الأمة الإسلامية ويؤمن بقدرتها على العطاء واستئناف دورها في التاريخ، وهو يثق في أصول هذه الحضارة، ويتجاوز مرحلة الانبهار والتلفيق، ولا يرى في الحضارة الأوروبية الشوط الأخير في رحلة الحضارة، بل يرى أن في هذه الحضارة صنوفا قاتلة من الخل، وإن كان لا يؤمن بالتزام السكونية أو القدرية أو الحتمية، حتى تتداعى آليا هذه الحضارة... لأنه مطالب بالبدل والعمل، ليس لإسقاط الحضارة الغربية - فهذه ليست قضيته، بل لتقديم حضارة بديلة تتناغم مع الصياغة الإسلامية للحياة ...

ويرى هذا الاتجاه أن ضعف المسلمين وتفرقهم هما أكبر خدمة يقدمها المسلمون لأعدائهم، وأن كل صور الغزو الخارجية - السياسية والاقتصادية والعسكرية - مرجعها إلى خلل في البناء الداخلي للأمة الإسلامية نشأ من الانفصام النكد الذي وقع بين حياة المسلمين وبيز شريعتهم وأصولهم الحضارية.

ويفرق هذا الاتجاه بين مصطلحي (التحديث) الذي هو امتلاك كل الأساليب الصحية النافعة لدى الخصم الحضاري، وبين (التغريب) الذي هو استسلام للغرب... فالتحديث علاقة تفاعل بين حضارتين، والتغريب تبعية المغلوب للغالب.



ويرى هذا الفريق أن ( الحضارة تحد ) ولا يمكن أن تستورد الحضارة أو تشتري، فهي معاناة ورقى متدرجان، وليست الحضارة هي الآلات أو المنجزات المادية، بل الحضارة مركب مكون من العقيدة والفكر والإنسان والتراب والوقت ... وحصاد هذا المركب من نظم ومناهج وماديات هو ثمرة الحضارة ... فالسبب في الإبداع الحضارى هو ( المركب )، وأما (الحصاد) أو المخترعات فهي النتيجة والثمرة . ولا يجوز أن تتقدم النتيجة على السبب .. أو أن يقفز إلى النتيجة دون أسبابها أو مؤهلاتها .

ويرى الاتجاه الإسلامى - أيضا - أن ثمة (حتمية) فى التاريخ هي (السنن الكونية الإلهية) لكن هذه الحتمية لاتشمل حركة الإنسان الفرد، ولا تكبل حركة الأمة إن هي قررت السير فى طريق الحضارة، فالقدريّة الاستسلامية لاتحسب على هذا الاتجاه الإيجابى الحركى، وإنما تحسب على الانعزاليين السكونيين من أصحاب النزعات الوجدانية والباطنية، كما أن هذه الحتمية ليست من باب الحتمية الماركسية التى تجعل التاريخ كتلة لا وعية تتحرك قدما بطريقة آلية، وليس لإرادة الفرد أو الأمة دور فيها...

ويرفض هذا الاتجاه الدورة الطبيعية للحضارة التى يقول بها العلامة ابن خلدون، فابن خلدون كان يعالج الدول - لا الحضارات - فى نظريته ... ونظريته ذات صلة وثيقة بالحتمية التى يرفضها النظر الإسلامى .. والحضارة الإسلامية قادرة على الإفلات من حصار الموت، وعلى البروز فى مواقع أخرى أكثر قدرة على حمل رايتها والتعبير عن فطرتها وأدق مبادئها، لأنها (الحق) الذى يجب أن يبقى فى مواجهة (الباطل) .

ويرى هذا الاتجاه أن خط الأنبياء والمرسلين هو خط الحق والإسلام فى التاريخ كله، والقوى المحاربة لهم هى خط الباطل ... ولا صراع فى الحياة إلا بين الحق والباطل.. وأما القوى الأخرى فبينها تعاون وتكامل واستشارة وليس صراعاً... لاصراع بين الطبقات ولا بين الملاك والعمال، ولا بين الرجال والنساء، ولا بين الأجيال، ولا بين الفرد والمجتمع ... ولا بين الإنسان والطبيعة... بل هو تكامل حتمى، حتى ولو لبس ثوب استشارة وتنافس مشروعين... فهو صراع واحد بين قوى الخير والشر فى الكون والحياة... ويجب أن ينظر إلى التاريخ من هذا المنظور وحده.. وكيف يكون صراعاً.. ولا غنى للمالك عن العامل أو العكس، ولا للرجل عن المرأة أو العكس، ولا للإنسان عن الطبيعة أو العكس.. وهكذا..

إن هذا الصراع الحاد العنيف لا يؤمن به النظر الإسلامى لحركة التاريخ، وليس من منهجه فى شئ..

\* \* \*

ويؤمن النظر الإسلامى للتاريخ بدور القيادة والبطولة والأقلية المبدعة؛ إذ ليس فى الإمكان أن يكون كل الناس عمر بن الخطاب أو صلاح الدين الأيوبي، وفى الوقت نفسه لن تستطيع الجموع أن تسير فى طريقها الصحيح إلا بالقيادة الواعية المفكرة المبدعة، وهل يمكن أن يكون تاريخنا متألقاً وعظيماً دون نجومه المعروفة من أمثال أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وخالد وسعد بن أبى وقاص وأبى عبيدة والقعقاع وعمر بن العاص وعقبة بن نافع وعشرات غيرهم، وإذا وسد الأمر إلى غير أهله من الرعاع والغوغاء فالمصير هو التردى والهزيمة... كما أن الأقلية المبدعة ليست أقلية انعزالية مستعلية، بل هى من الأمة وللازمة وقد صنعتها الأمة على عينها وبعرقها... وعليها - بالتالى - مسئولية

تجاهها... ومسئولية أمام الله الذى سيحاسبها على دورها الذى هياها له ووفر لها وسائله.

والعرب مادة الإسلام... وهم ملائكة وأروع أجناسه وأنقاها إذا حملوا رايته بإخلاص، لكنهم أحط الأجناس الإسلامية عندما يخونون هذا الدين ويتنكرون له... فهم إما ملائكة بالإسلام وإما جنس منحط غرائزى بغير الإسلام... ولا طريق لهم فى التاريخ إلا هذا أو ذاك.

بل لقد استطاع الإسلام أن يزيل العرب من الحكم عندما سيطرت عليهم مفاهيم العصبية القبلية بدلا من مفهوم المساواة الإسلامى، وإن كان الإسلام قد أحدث حركة استعراب ضخمة، لمختلف المناطق التى وصل إليها حملة الإسلام، ولئن كان الإسلام لا يلزم أحدا باعتناقه فقد تعربت جماعات كثيرة دون أن تصبح مسلمة، وساهمت بدور واضح فى مجال الفكر العربى الإسلامى جنبا إلى جنب مع المسلمين<sup>(١)</sup>.

ولم ينتشر الإسلام بذاته.. بل انتشر بسواعد مخلصه وقلوب نقية وعقول ذكية وهمم عالية... فالتاريخ الإسلامى صنعه رجال فاعلون، ولم يصنعه سكونيون هامدون خرافيون... وقد عانى صانعو هذا التاريخ مثلما يعانى كل البشر وزلزلوا زلزالا شديدا وصبروا على ما امتحنوا به، وكانت العقوبة -بعد الابتلاء والاختبار- للمتقين... وحضارة الإسلام حضارة دعوة حملها التجار والعباد والزهاد، وليس العنف سبيل الإسلام إلا عندما توصل كل الأبواب...

وفى عهد عمر بن عبد العزيز الذى لايزيد على عامين إلا قليلا دخل فى دين الله أضعاف الذين دخلوا بالمعارك فى عشرات السنين.

ولدورة التاريخ الإسلامى منظومة خاصة لاعلاقة لها بالمنظومة

---

(١) أنور الجندى : الإسلام وحركة التاريخ ص ٤٤١ طبع مصر.



الأوربية، ولا يجوز أن تقاس عليها... فبينما كان التاريخ الأوربي يمر بأسوأ فتراته بعد ضياع حضارتيه: اليونانية والرومانية كان التاريخ الإسلامي يبدو في أفق الإنسانية وكأنه شمس متألقة يوشك ضوءها أن يعم الكون كله...

إن الفترة الواقعة بين سنتي: - ( ١ - ١٣٢ للهجرة ) - وهو تاريخ سقوط بنى أمية - أو حسب رأى بعضهم - من السنة: ( ١ - إلى - ١١٤ للهجرة ) وهو تاريخ هزيمة المسلمين في موقعة بلاط الشهداء (بواتيه) - تعتبر عصر الفتح الإسلامي الحضاري الذي امتد إلى أكبر مدى إشعاعى في تاريخ الإسلام ... فمن حدود الصين إلى أعماق بلاد الغال (فرنسا) ارتفع مؤذن الإسلام بشعاره الخالد (الله أكبر) وارثاً للتراث الحضاري الروماني، ومقدماتاً نموذجاً حضارياً لم تعرفه البشرية من قبل، أكبر خصائصه أنه يمزج بين العلم والدين والوحي والعقل في نسيج واحد متكامل غير متنافر...

في هذا التاريخ نفسه (٦٢٢ - ٧٣٢ للميلاد) كان قاموس أوربا لايعرف ما يسمى بالفكر أو العقل أو البحث العلمى، بعد أن قضت الكنيسة على كل ومضات العقل السابقة، وجعلتها «هرطقة» يرمى مرتكبها بالزندقة ويستحق القتل... وصادرت العقل البشرى لحساب الوحي المغلوط...

وأن الفترة الواقعة بين سنتي (١٣٢ - ٤٨٩هـ) وهو التاريخ الذى يفصل بين سقوط الأمويين وبداية الحملات الصليبية على المشرق ... وأيضا قبيله بقليل سقوط طليطلة فى الأندلس ...

هذه الفترة على ما بها من تفكك سياسى نسبى وظهور عدد من الدويلات المستقلة عن دولة الخلافة العباسية، كالأدارسة فى المغرب

الأقصى، والرستميين في المغرب الأوسط والمدرايين في سجلماسة،  
والطاهريين في خراسان والطولونيين في مصر والأمويين في الأندلس  
... ثم حركة الانشقاق الفكري والروحي والسياسي المتمثلة في  
الفاطميين في المغرب ومصر ... هذه الفترة مع هذه السلبيات كانت  
فترة ازدهار فكري وحضاري وتنوع في الإيقاعات ونشر للعربية  
والإسلام بالعقل والكلمة والأخلاق، وظهور لمدارس الفكر الإسلامي ...  
وبينما كانت مكتبة الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الثالث ( ٣٥٠ -  
٣٦٦هـ ) تضم نحو أربعمئة ألف مجلد كانت أكبر مكتبة في أوروبا  
تضم ١٩٢ كتاباً ... وبينما كان المسلم يتوضأ خمس مرات ويغتسل كل  
أسبوع عبادة لربه ... كان الأوربي الناسك يتباهى بأن جسده لم يمسه  
الماء منذ عدد من السنين!!

هكذا كنا ... وهكذا كانت أوروبا لخمسة قرون ... بل لعشرة قرون  
في الحقيقة ... فكيف تكون دورتنا الحضارية خاضعة للدورة  
الأوربية ... ولهذا كان بدهيا أن يؤمن الفكر الإسلامي المعاصر بأن دورة  
حضارته (منظومة خاصة) تتناقض مع الدورة الأوربية في عصرها  
الوسيط الذي امتد من القرن السادس وحتى القرن السادس عشر للميلاد.  
وبإيجاز ... تلك بعض مرييات الاتجاه الإسلامي المعاصر نحو  
التاريخ وهي بعض البذور في طريق تكوين تفسير إسلامي أصيل  
للتاريخ والحضارة.

## الحصاد والتقويم

### أ - تطور في الرؤية والتنظير:-

في البداية، وقبل مرحلة التنظير للمعضلة الحضارية بمنهجية علمية  
تستفيد من تطور فلسفة التاريخ في العالم، كانت الدراسات تتجه

مباشرة للإجابة على التساؤلات الخاصة بسر تخلف الأمة الإسلامية وتقدم أوربا.

وحتى كتاب الأستاذ أنور الجندى الذى أصدر طبعته الأولى سنة ١٣٨٨هـ (١٩٦٨م) تحت عنوان (الإسلام وحركة التاريخ - رؤية جديدة فى فلسفة تاريخ الإسلام) حتى هذا الكتاب الذى يعتبر متأخرا فى صدوره، ومع أن مؤلفه الكريم جال بنا عبر تاريخنا الإسلامى جولة طيبة إلا أنه قد اتجه إلى هذه الطريقة المباشرة عن (عوامل التأخر ودوافع التقدم) دون أن يقدم الإطار التفسيرى التاريخى لهذه العوامل وتلك الدوافع، على النحو الذى نراه - مثلا - عند مالك بن نبي أو عماد الدين خليل أو محمد جلال كشك أو محمود محمد سفر...

ويلخص الأستاذ أنور الجندى رأيه حول عوامل التحلل والضعف فى عالم الإسلام فى ثمانى نقاط هى:

- ١ - الخلافات السياسية والعصبية وتنازع الرئاسة والجاه.
- ٢ - الخلافات الدينية والمذهبية والانصراف عن روح الدين.
- ٣ - الانغماس فى ألوان الترف والنعيم والإقبال على المتعة والشهوات.
- ٤ - انتقال السلطة والرئاسة إلى غير العرب من الفرس تارة والمماليك والأتراك وغيرهم.
- ٥ - إهمال العلوم العلمية والمعارف الكونية وصرف الأوقات وتضييع الجهد فى فلسفات نظرية عقيمة وعلوم خيالية سقيمة.
- ٦ - الانخداع بدسائس المتملقين من خصومهم والإعجاب بأعمالهم ومظاهر حياتهم والاندفاع فى تقليدهم.
- ٧ - الغرور بسلطانهم والانخداع بقوتهم وإهمال النظر فى التطور



الاجتماعى للأمم.

#### ٨ - الدعايات الاستعمارية التبشيرية (١).

ومع تقديرنا لهذه المستخلصات الطيبة إلا أن الوصول إليها كان يجب أن يوضع فى إطار من التحليل العلمى المتكئ على رؤية عميقة للتاريخ.

وقد كان المجاهدان الكبيران عبد الرحمن الكواكبى وشكيب أرسلان أسبق فى الوقوف عند هذه النقطة، وقد قدما فيها عدداً من المقترحات والآراء التى تلتقى بنسبة كبيرة مع ما قدمه الأستاذ الجندى...

فقد رأى الكواكبى أن عوامل ضعف المسلمين هى جهلهم ولا سيما الأمراء منهم، وظهور الحكومات المستبدة وحرمان الشعوب من الحرية وتعطيل شريعة الله وإهمال الدين وانحلال رابطته وتشويهه بواسطة العلماء المدلسين والمؤولين والاقتصار على العلوم الدينية وإهمال العلوم الطبيعية والرياضية، والفقر، وتكبر الأمراء وميلهم إلى المنافقين وعلماء السوء (٢).

أما العلامة شكيب أرسلان فقد رأى أن أهم عوامل تأخر المسلمين هى:

ترك المسلمين عزائم القرآن التى قام بها سلفهم، وإعراض علماء المسلمين عن العلوم الطبيعية وفقدتهم أعظم قوة مادية، والاكتفاء من الدين بالرسوم الظاهرة واللهو بالقشور عن اللباب، واليأس من رحمة الله وفقدان الثقة فى النفس واستخذاء المسلمين أمام الأوربيين وفقد أكثرهم عزة الإسلام القومية، ومواطأة المسلمين الأوربيين على إخوانهم

(١) أنور الجندى / الإسلام وحركة التاريخ ص ٤٧٩، طبع بمصر.

(٢) طبائع الاستبداد.

وخدمتهم إياهم، وفقد روح التضحية التي سادت بها الأمم الأوروبية، وعدم اقتداء المسلمين بالأوروبيين في تأليف الجمعيات والشركات، وفساد الأخلاق عامة وأخلاق الأمراء خاصة، وفساد العلماء الذين هم القوة المراقبة للحكومات، وتفوق الأوروبيين في العدة وطمعهم في مجاورتهم لجميع بلاد الإسلام وثباتهم وصبرهم وسيرهم على خطط مرسومة يتبعونها منذ مئات السنين ويخيم الجهل على الأمم الإسلامية، وعدم تجدد برامج التعليم، واستيلاء الجمود على الفقهاء، وكثرة الكلام عن الآخرة - مع أن الإسلام دين دنيا وآخرة - ، والدعايات الاستعمارية التبشيرية (١).

بيد أن تطور العقل المسلم في التنظير للمعضلة الحضارية قد مكنه من تقديم تصور لعملية التطور الحضارى بطريقة منهجية وشمولية .. فليس الأمر فى البناء الحضارى مجرد تقديم اقتراحات أو علاج بعض الأمراض ... فالقضية تتصل بالكيان الحضارى كله وبروحه الهامدة وبإرادته الخامدة ... وعلاج الروح عمل معقد يحتاج إلى توجيه فكرى ونفسى وجمالى وإلى إعادة ارتباط المسلم بالسنن الكونية من خلال عقيدة حضارية قادرة ... حتى يعرف المسلم موقعه فى الكون ورسالته نحو الإنسانية.

وفى هذا الإطار كان لمالك بن نبي - على المستوى التنظيرى - فضل كبير ، وكان للمجاهدين من أمثال الشهيد حسن البنا وتلاميذه وعلى رأسهم الشيخ محمد الغزالي والشهيد سيد قطب والدكتور يوسف القرضاوى وغيرهم من أمثال العلامة أبى الأعلى المودودى ، والعلامة أبى الحسن الندوى وتلامذتهما ... والإمام عبد الحميد بن باديس وجمعية العلماء وغيرهم - على المستوى التطبيقى - فضل كبير أيضاً .

(١) - أنظر أنور الجندى : الإسلام وحركة التاريخ ص ٤٨١

ومن خلال هذا النمو النظرى والعملى بدأت الكتابة التاريخية من منظور إسلامى تصل إلى مرحلة طيبة من الرشد... فبالإضافة إلى سلسلة مالك بن نبي (مشكلات الحضارة) والتي تضم (شروط النهضة، وآفاق جزائرية، وفى مهب المعركة، والمسلم فى عالم الاقتصاد والظاهرة القرآنية) وغيرها... بدأت تظهر كتابات الدكتور محمد سعيد رمضان البوطى فى منهج الحضارة الإنسانية وحوار حول مشكلات حضارية، وكتابات الدكتور عماد الدين خليل حول (التفسير الإسلامى للتاريخ) وكتابات الأستاذ محمد جلال كشك حول (الغزو الفكرى، والقومية والغزو الفكرى، والماركسية والغزو الفكرى، ودخلت الخيل الأزهر) وغيرها، كما ظهرت دراسات الدكتور محمود محمد سفر تحت عناوين: (الحضارة تحد، وإنتاجية مجتمع، والإعلام موقف، والتنمية قضية) وغيرها... وظهرت بحوث الدكتور عون الشريف قاسم حول (قضايا البعث الحضارى) وظهر بحث الدكتور عثمان موافى بعنوان (منهج النقد التاريخى الإسلامى والمنهج الأوربى) وبحوث الدكتور محمد فؤاد حجازى حول (البناء الاجتماعى، والتغيير الاجتماعى) وبحوث العلامة الدكتور عمر فروخ فى التاريخ الإسلامى وتفسير التاريخ... وبحوث الأستاذ جودت سعيد تحت عناوين (حتى يغيروا ما بأنفسهم، وفقدان التوازن الاجتماعى، والإنسان عندما يكون كلاً وحين يكون عدلاً)... وبحوث كاتب هذه السطور حول (تفسير التاريخ)... كعلم إسلامى و(دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية)...

وهكذا - وبدون استطراد كبير لايتسع له المقام - بدأ العقل المسلم يقتنح عالم السنن التاريخية والاجتماعية، حتى يكتشف من خلال



تعرفه عليها التفسير الصحيح للأزمة الحضارية التي تمر بها أمته، والطريق لعبور هذه الأزمة، وكان هذا - فى حد ذاته - خطوة طيبة للقفز بالمنهج التاريخى ودفعه ليلتحم بفلسفة التاريخ التي هى جزء لا يتجزأ من المنهج التاريخى السليم.

ولم يقف الإنجاز - فى النظرة الإسلامية للتاريخ - عند هذا الأفق - مع سموه - بل إن ثمة إنجازات تمت على مستوى الكتابة التاريخية المباشرة...

لقد تهاوت فى العقل المسلم كل محاولات الانتقاص من شخصية الرسول ( صلى الله عليه وسلم )، ومن خلفائه الراشدين، وأكدت مئات البحوث الإسلامية وغير الإسلامية أن محمداً هو الأول فى التاريخ، وأن كل ما ظن أنه شهادة ضده هو شهادة له ... فحتى تعدد زوجاته كان شهادة له من تسع زوجات مطلعات منه على كل صغيرة وكبيرة - ويستحيل تواطؤهن على الكذب، وقد عاش بعضهن بعده نحو نصف قرن وحرمن من الرجال بسببه - ومع ذلك ظلن يعترفن بعظمته ويؤمن بنبوته ولم يتغير رأيهن فيه قط، مع أن كل العظماء - كما يقال - يفقدون عظمتهم فى بيوتهم مع الزوجة الواحدة ... إلا محمداً الذى بقى عظيماً مع تسع زوجات (١) "

وقد ظفر العصر الراشدى بتقدير كبير وتألفت عظمة أبى بكر وعمر ... وحتى خلاف الصحابة فيما بينهم وصل النظر السليم إلى أنه خلاف فى سبيل الحق ... المصيب منهم والمخطئ كان يبحث عنه

(١) أنظر بحثاً فى هذه القضية بعنوان (شخصية الرسول أمام المقاييس الإنسانية) للكاتب (ألفى فى الندوة الثالثة لتاريخ الجزيرة بالرياض) وقد توسع فيه ونشر فى كتاب ضمن سلسلة ينابيع الثقافة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

.. وقد دعمت أبحاث العلامة محب الدين الخطيب والدكتور محمد الصادق عرجون هذا الاتجاه الحميد...

ولئن كان الصحابة بشرا على أعلى طراز من البشرية الزكية المخلصة - على الرغم من وجود خلافات اجتهادية بينهم - فإن النظرة إلى الدولة الأموية والعباسية - من باب أولى - يجب أن تكون منصفة، فتسجل لهم الإيجابيات، وتسجل السلبيات، وسوف نجد أن دولة بني أمية - مع وجود أخطاء - قد قدمت خيراً كثيراً للإسلام، وكانت - بحق - دولة الفتوحات العظيمة - كما أن دولة بني العباس قد نجحت في استيعاب الانفتاح الحضارى، وأبرزت الألق الفكرى الإسلامى فى وجه التيارات الزاحفة من الحضارات المنهزمة... ووقفت فى وجه حركات شعبية وإلحادية كثيرة... وهذا لايعنى عدم وجود أخطاء فيها..!!

- وقد أنصف الأيوبيون أبطال حطين...

- وأنصف المماليك أقطاب عين جالوت...

- ووضعت أصول نظرة علمية للتاريخ العثمانى وفضله على المسلمين لقيامه فى وجه الغارة الصليبية التى كادت تبتلع المغرب والمشرق بعد قضائها على الأندلس لولا ظهور القوة العثمانية الإسلامية الفتية.

ومع كل العبث والتضليل الذى وقع فى التاريخ الحديث، فقد نجحت الرؤية الإسلامية للتاريخ فى كشف الحركات المعادية التى تلبس شعارات القومية والشعبوية والإلحادية والماسونية المستترة والتقدمية والوطنية، وكانت -وما زالت- عائقا دون وحدة العرب وتقدمهم.

وقد أبرز المنهج التاريخى الإسلامى الدور الأساسى فى تحرير الشعوب الإسلامية، ولا سيما فى الثورات التحريرية الكبرى كثورة الجزائر، ووقوف ليبيا ضد الاحتلال الإيطالى، ووقوف الأزهر ضد

الحملة الفرنسية وضد مظالم الولاة، وثورات أندونيسيا ومسلمى الهند، ودور الأزهر والزيتونة والقرويين والمعاهد الإسلامية فى بعث الوعى الإسلامى بعامّة.

## ب - تطور فى مناهج البحث

وقد بدأ تقويم شامل للمصادر التاريخية الإسلامية، فوجه النقد لمؤرخين كبار من أمثال المسعودى (المعتزلى) وابن طباطبا (الباطنى) واليعقوبى (الباطنى) وابن مسكويه (وكان تابعا لبنى بويه الباطنيين) وعبد الواحد المراكشى (ظلم المرابطين لحساب الموحدين) وناصر خسرو وابن حوقل (لاتجاههما الباطنى).

وقد بدأ تطبيق عملى فى الكتابة التاريخية لذلك المنهج - الذى كان يحلم به ابن خلدون - فأصبح التاريخ مصحوبا بلون من التفسير والنقد الداخلى والانسجام العقلى، وقد نقد المؤرخ المتحيز والمتملق والجاهل، ورفضت الثقة المطلقة فى الناقلين عن طريق الجرح والتعديل.

ومع التحام تفسير التاريخ بالعملية التاريخية البحتة ظهر تقدير المؤرخين لما سماه ابن خلدون (طبائع العمران) فميز الصدق من الكذب ... (فالقانون فى تمييز الحق من الباطل فى الأخبار بالإمكان والاستحالة أن ننظر فى الاجتماع البشرى الذى هو العمران، ونعرف ما يلحقه من الأحوال لذاته وبمقتضى طبعه، وما يكون عارضا لا يعتد به، وما لا يمكن أن يعرض له)(١).

ولا نستطيع - مع تقديرنا لتأثير ابن خلدون - أن ننكر أثر

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٣٣ طبع بيروت.



التيارات التاريخية الوافدة مثل كتابات أرنولد توينبي وأوزفالد شبنجلر وجوستاف لوبون ورينيه دوبوا وإليكسيس كاريل وإدوارد جيبون وغيرهم - على ما لديهم من أخطاء - كما لا نستطيع أن ننكر أثر الأفكار المضادة . مثل الأفكار الماركسية المادية الحتمية عن التاريخ عند كارل ماركس وجورجى بلنجانوف وأفكار فريديرخ هيجل المثالية .

ومع تطور المنهج نظر بعين الشك إلى الحشو المغلوط الذي يراد جعله تاريخاً، والمتمثل فى عدد من الموسوعات الأدبية مثل كتاب (الأغاني) لأبى الفرج الأصفهاني، ومثل قلائد العقيان ومطمح الأنفس للفتح بن خاقان والعقد الفريد لابن عبد ربه ... فهى مصادر يؤخذ منها ويترك وأكثرها منحول لا يصور حياتنا الإجتماعية .

وفى العصر الحديث ظهرت أدوار ساطع الحصرى، وجورجى زيدان وبقية مدرسة المستغربين كما كشفت مدرسة المستشرقين والمدرسة الماركسية، فى العبث بتاريخنا وتحريفه لخدمة الأغراض المحددة .

ويكاد ينتهى التطور فى المنهج التاريخى من وجهة نظر إسلامية إلى عدد من المسلمات التى تمثل إضافة جيدة، وأهمها:

١ - الارتباط بين العاملين التاريخى والوثائقى والعمل التفسيرى الداخلى فى فقه التاريخ .

٢ - تقويم المصادر على أساس الإفادة من نهج المحدثين فى الجرح والتعديل واعتماد القرآن والسنة\* (المصدرين الأساسيين) للتاريخ الإسلامى والتاريخ العام .

٣ - ضرورة أن يجمع المؤرخ بين وظائف ثلاث (مؤرخ ومحدث ومفسر) فى حدود الاستطاعة .

٤ - الشمولية فى النظر التاريخى بين شتى العوامل المؤثرة فى الحركة التاريخية من فكر واقتصاد وحياة اجتماعية وعقدية وسياسية وعسكرية، فليس بالسياسة وحدها تصنع الحياة، بل كان للعلماء والصناع والزراع والتجار دور أهم فى صناعة التيار الحضارى.

٥ - ضرورة توافر أدوات البحث التاريخى فى المؤرخ المسلم من عدالة وضبط وموضوعية وفقه باللغة والعلوم الإسلامية والجغرافيا الإسلامية عبر القرون، وعدم الحكم إلا من خلال علم مؤكد.

٦ - رصد الغايات العليا الإسلامية وتأثير مبادئ الإسلام فى التاريخ العالمى والحضارة الإنسانية.

٧ - إبراز تاريخ الأنبياء باعتباره تاريخ جبهة الحق وهداة القافلة البشرية.

٨ - النظر إلى التاريخ الإسلامى كله على أنه تاريخ كل مسلم، ورفض النظرة الشعبوية للتاريخ، فتاريخ الهند وأفغانستان والأندلس والمغرب ومصر والشام والجزيرة العربية وأندونيسيا وبقية أقطار العالم الإسلامى وحدة لا تتجزأ.

\* \* \*

وبإيجاز ... لقد حقق الاتجاه الإسلامى تطوراً فى الرؤية، وفى المنهج، والتحم بآفاق الماضى وآفاق الحاضر، وقدم دراسات نقدية جيدة وأطروحات موفقة اتكأت على منهجية سليمة، بل كان الاتجاه الإسلامى أسبق فى التنظير الفلسفى للحركة التاريخية على مستوى العالم الإسلامى.

بيد أن الخطوات فى طريق كتابة شاملة للتاريخ الإسلامى بمنهج إسلامى رصين تمضى بطيئة وبجهود فردية، وما زال التاريخ الإسلامى

يتعرض لغارة شرسة من أعداء الإسلام وخصوم حضارته .

ولم يجد الاتجاه الإسلامى الإمكانيات لكى يقدم موسوعات تدحض ذلك العرض السيئ الملى بالسموم الذى تحفل به الموسوعات التاريخية الاستشراقية ودوائر المعارف الغربية والتفسيرات الماركسية لتاريخنا - فضلا عن أن بعض الكتابات التاريخية المخلصة تمتاز بالجمع التقليدى للوقائع، وبافتقادها إلى عنصر النقد العلمى وباعتمادها على العاطفة والأفكار الشائعة . ولعل المنهج التاريخى الإسلامى يتجاوز هذه الأخطاء التى يقع فيها بعض المحسوبين عليه فى وقت قريب بإذن الله .

\* \* \*

وأيا كان الأمر - واقترابا من مجالات التطبيق التى تدخل بطريقة ما فى التقويم - نقدم بعض النماذج الأصيلة والرائدة فى ميدان البحث التاريخى القائم على الشمولية والتفسير واستخدام التاريخ كعنصر أسيل فى ذاتنا الحضارية .. وسوف يرد فى ثنايا عرضنا لهذه النماذج ما نأخذه عليها من سلبيات، وما تحفل به من إيجابيات .

\* \* \*

تعتبر دراسة الدكتور عماد الدين خليل حول (التفسير الإسلامى للتاريخ) - بيقين - من أهم الدراسات المباشرة فى قضية (التفسير الإسلامى للتاريخ) وإن كان تفسيره محصورا فى الرؤية القرآنية لا يتعداها .

وفى البداية يبرز عماد الدين خليل معالم رؤيته فيقول: « إن ثمة حقيقة أساسية تبرز واضحة فى القرآن الكريم، تلك هى أن مساحة كبيرة فى سورة وآياته قد خصصت (للمسألة التاريخية) التى تأخذ أبعادا واتجاهات مختلفة وتتدرج بين العرض المباشر والسرد القصصى

(الواقعي) لتجارب عدد من الجماعات البشرية، وبين استخلاص يتميز بالتركيز والكثافة للسنن التاريخية التي تحكم حركة الجماعات عبر الزمان والمكان مروراً بمواقف، الإنسان المتغيرة من الطبيعة والعالم، وبالصيغ الحضارية التي لا حصر لها والتي تتأرجح بين البساطة والنضج والتركيب، وتبلغ هذه المسألة حداً من (الثقل) و (الاتساع) في القرآن الكريم بحيث إن جل سورة لا تكاد تخلو من عرض لواقعة تاريخية أو إشارة إلى حدث أو تأكيد على قانون أو سنة تتشكل بموجبها حركة التاريخ».

فالتفسير الإسلامي حقيقة إذن ... وهو ليس عملاً مفتعلاً أو رد فعل للتفسيرات التي ظهرت مثالية أو مادية .. وهو - أيضاً - ليس جرياً لاهثاً وراء قضية احتلت مكانها من الفكر المعاصر .

بل إن الدكتور عماد الدين خليل لا يلبث أن يتحدث عن مأخذ خطير يأخذه على كثير من الباحثين وفلاسفة التاريخ المعاصرين الذين وقعوا في خطأ القول :

بأن ابن خلدون هو أول من مارس هذا المنهج وأنه لا توجد قبل ابن خلدون أية محاولة لتفسير التاريخ . ومن عجب أن ابن خلدون نفسه وقع في الخطأ ذاته عندما أكد في مقدمته أنه لم يعثر على أية محاولة في هذا المجال وكان أخرى به أن يبين ما يتضمنه القرآن من إشارات تدل على الطريق .

ومع هذا الاعتراف - بالسبق القرآني في هذا المجال - فإن الدكتور عماد الدين خليل قد وقع فيما وقع فيه ابن خلدون، وذلك حين صدر، التفسيرات الأخرى بما يوهم أنها أسبق أو أنها الأصل الذي يقاس عليه مع أن مكانها المنهجي - في رأينا - أن تأتي متأخرة ولمجرد



المقارنة التي تكشف عناصر الاختلاف ومظاهر السيطرة والجزئية الشديدة المحدودة التي حفلت بها هذه التفسيرات والتي جعلتها أقل (مكاناً) ومكانة عن «التفسير الإسلامى للتاريخ».

وفى هذا المنهج أيضاً نلاحظ أمراً يظهر لأول وهلة، فإن المادة التي اتكأ عليها الدكتور عماد الدين تكاد تنحصر فى «القرآن الكريم» - كما أمحنا - بحيث يبدو وكأنه لا وجود للسنة الشريفة، مع أن ثمة أحاديث نبوية كثيرة تحدثت عن قضايا تاريخية وكونية واستشرفت آفاق المستقبل البعيد مما هو ضرورى التناول عند المعالجة لموضوع «التفسير الإسلامى للتاريخ» فهل يا ترى ترك المؤلف (السنة) وتاريخ المسلمين بشقيه الصحيح والمنحرف عامداً لاعتبار رآه؟ وما هذا الاعتبار؟

وفى البداية - كذلك - يطالعنا الدكتور بحديث جيد ومركز عن الواقعية (التاريخية) من الوجهة القرآنية.

«وقد قدم لنا القرآن الكريم نماذج عديدة للمعطيات التاريخية وحدثنا عن الماضى فى جل مساحته، لكن ما يلبث أن يخرج بنا ببيان الحكمة من وراء هذه العروض، وإلى بلورة عدد من المبادئ الأساسية فى حركة التاريخ البشرى مستمدة من صميم التكوين الحدثنى لهذه العروض، تلك المبادئ التي سماها (سنناً) ودعانا أكثر من مرة إلى تأملها واعتماد مدلولاتها فى أعمالنا الراهنة ونزوعنا المستقبلى».

وعلى امتداد الكتاب الكريم تترى العروض القرآنية مغطية مساحة زمنية تبدأ من آدم وتنتهى بالرسول محمد عليهما الصلاة والسلام.

بل إن بعض الايات القرآنية لتتجاوز الماضى والحاضر لكى تمد رؤيتها إلى المستقبل القريب أو البعيد فى تنبؤات تاريخية يحيط بها

علم الله تعالى المطلق بالصدق الكامل والضمانة النهائية.

ولم يغب عن القرآن الكريم أن يوضح الأسباب التي من أجلها تنزلت هذه العروض التاريخية والإيحاءات المستقبلية. إنها كلها لهدف إثارة الفكر البشري ودفعه إلى التساؤل الدائم والبحث الدائب عن الحق وتقديم خلاصات التجارب البشرية وإزاحة ستار الغفلة والنسيان في نفس الإنسان وتقديم البرهان على الحق الواحد الذي جاء به الأنبياء.

أما النتائج المرادة من هذه العروض فهي الانسجام عن وعي بالسنن والنواميس المتمخضة عن دراسة التاريخ البشري والتمعن في وقائعه وأحداثه، وفي القرآن الكريم لا تتحدد هذه النواميس ولا تأسر نفسها بتفاصيل وجزئيات موقوتة، بل تمتد مرنة منفتحة شاملة لكي تضم أكبر قدر من الوقائع وتلامس أكبر عدد من التفاصيل والجزئيات وتبقى - في النهاية - الحصيلة النهائية والرموز المكثفة والدلالات الكبرى لحركة التاريخ.

إن هذا الركن من أركان بحث التفسير الإسلامي الثلاثة قد اعتمد بصورة مركزة وجيدة على القرآن الكريم في مسألة (الواقعة التاريخية) بحيث نستطيع القول : إن المؤلف قد استعرض الآيات القرآنية المتعلقة بالموضوع استعراضاً شبه كامل وأنه أحسن استغلال النص وكان يتحرك من داخل النصوص بموضوعية ووعي جعلت خطى النص والتحليل يسيران في تآزر دون أن يطغى أحدهما على الآخر.

ومن خلال هذا تتبع القرآني لمسيرة (الواقعة التاريخية) تكشفنا لنا رؤى ومعطيات أبرزها مجموعة من السنن الكونية التي دل القرآن عليها خلال حديثه عن الأمم السابقة.

ومنها - أيضا - تلمس لأبعاد المسألة الزمنية في القرآن وهي تلك

المسألة التي تخطت فيها الآراء الحديثة منذ بدايات (الدارونية) الأولى بين القائلين بالخلق المباشر المستقل والقائلين بنظرية التطور الطبيعي .

فالقُرآن عبر استعمالاته للبعد الزمني يبين لنا أن الروح الإلهية متجلية في أصل الإبداع لكن لا يبين لنا (سر الروح) ولا المدى الزمني الذي استغرقته عملية إبداع الكون بالنسبة لوعينا البشرى بالزمن، وهو وعى محدود جداً في عصرنا فكيف بالعصور السابقة؟ .

لكن الجلى من الآيات القرآنية أن فعل الله كان مباشراً، وأن هذا الفعل يسخر لتحقيق حكمة الله الدافعة في التاريخ بقوتين: قوة الطبيعة المادية المنظورة وقوة الروح غير المنظورة، وهذه الأخيرة هي الفرق الجوهرى بين التفسير الإسلامى للتاريخ والتفسيرات الوضعية.. إنها (البعد الغيبى) « وما يعلم جنود ربك إلا هو » .

ومما نستخلص من معطيات المسيرة القرآنية فى أطوار (الواقعة التاريخية) - كذلك - أن للإنسان دوراً أساسياً فى هذه الواقعة . وهذا الدور هو ما نسميه (بالحرية الإنسانية) التى هى فى مداها البعيد جزء من إرادة الله فى خلق الأفعال والأحداث .

وفى إطار هذه الحرية تتحرك قوى العقل والإرادة والانفعال والحس والحركة وغيرها من الطاقات التى ركبها الله فى الكائن البشرى «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» «قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم» ، وعشرات من الآيات القرآنية التى تؤكد على المستويين الفردى والجماعى هذه الحرية المنسجمة - فى الوقت نفسه - مع الدوائر الكبرى التى تصنعها مشيئة الله وعلمه الواسع المحيط . وهكذا فإن الواقعة التاريخية تجى وفق درجات ثلاث: أولاها: (علم الله ومشينته) وثانيتهما: (إرادة الإنسان وحركته) وثالثتها: هى (المادة



الخام) التى يخضعها الإنسان لإرادته فى إطار منسجم مع سنن الله الكونية التى لا تختلف، وفى حركة متوازنة محكمة الترابط بين دور الفرد ودور الجماعة أى بين النبى والأمة والبطل والجماهير والقائد والجنود وهكذا.

وفى القسم الثانى من بحثه يعالج الدكتور عماد الدين الدائرة الأوسع: دائرة المهمة التى خلق الإنسان - أساسا - لممارستها فى العالم والمركز الذى يحتله فى الكون، إنها (المسألة الحضارية) التى شغلت أذهان ابن خلدون وتوينبى وهيجل وماركس، وخيل للناس أن هؤلاء وحدهم هم الذين أظهروا هذه المسألة للوجود مع أننا - كما يقول المؤلف - نستطيع أن نتلمس البدايات الأولى للمسألة بالرجوع إلى حادثة (خلق آدم) باعتبارها حجر الزاوية فى الوجود البشرى بل إن (المسألة الحضارية) - ما دمنا نعنى بهذا الجانب الحضارى (الفاعل المبدع) المواجه لكتلة العالم الطبيعية والمستجيب لتحدياتها - تنطلى حادثة آدم إلى ما ورائية الوجود الأدمى...

أى أن سائر العمليات أريد بها تهيئة العالم لاستقبال المخلوق الجديد وإحاطة نشاطاته بالضمانات، وذلك إلى اليوم الذى قال الله فيه للسماء وللأرض: «إتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين»... وبالتالي، وفى رأى الدكتور عماد الدين: فإن التاريخ الحضارى هو: (كل فعل تمتزج فيه إرادة الله وروحه وكلمته بالمادة فتصوغها كتلا كونية أو نظما طبيعية أو إنسانا يتولى خلافة الله فى الأرض لإعمارها).

لكن هل يستطيع أى منهج من مناهج فلسفة التاريخ أن يمد الطرف إلى هذه المرحلة؟ إن التاريخ الحضارى فى القرآن هو وحده القادر على تحقيق هذه الشمولية فى النظرة دون أن يعتمد على افتراضات



لا جدوى منها .

وحيثما انتقلنا فى أرجاء القرآن الفسيحة لمطالعة الآيات والمقاطع الخاصة بخلق الكون وجدناها ترتبط ارتباطا عضويا أسيلا بالدور المنتظر الذى بعث الإنسان ليقوم به - هذا من جانب -- ومن جانب آخر بمرحلة تكوين جنين الحياة على الأرض ..

أما المسألة الحضارية - فى جانبها الإنسانى - فترتبط بخلق آدم وبالظروف والدلالات والإرهاصات والرموز التى صاحبت لحظة تعيينه خليفة الله فى الأرض ومجاوبته (بإبليس) الذى يمثل التحدى فى المسألة الحضارية .

ومن خلال «العمل العقلى والجسدى فى اتجاه الإصلاح أو الإفساد تتحدد نتيجة الصراع الحضارى بين الإنسان والشيطان وميدان هذا الصراع هو كتلة العالم والطبيعة التى يدور بينها وبين الإنسان حوار دائم وأبدى ... هو يسأل دائما وهى تتنعم - إلى حين - فى الإجابة»

«وفى القرآن الكريم مئات الآيات والإشارات تنفخ فى الإنسان هذا المعنى الحضارى العظيم وتعلمه أن حوار مع الطبيعة لن يستمر إلا بالسعى والكدح والحركة» وسواء استمر الحوار بينهما على أساس (النظر الحسى ) أو (الرؤية الداخلية) التى هى البصيرة أو (الفكر المجرد) القائم على البراهين والحجج فإن الصورة الفذة التى يطرحها القرآن عن ذلك التناغم بين الإنسان والطبيعة وما وراءها وذلك التوازن بين تسخير القوى المادية وتصنيعها وبين عبادة الله سبحانه، وذلك التقابل المبدع بين النزعتين الجمالية والعلمية، وهذه المعادلة الواضحة بين جبروت الإنسان وقدرته الفاعلة وبين نسبته وضعفه وحاجته

الدائمة إلى الله.. هذه الصورة التي لم يستطع أصحاب المذاهب الوضعية الوصول إلى تصور أبعادها وحصرها أنفسهم في دائرة محدودة أسموها (الصراع) أو (تجاوز النقائص) المتقابلة أو الجدل (الديالكتيك) مع أن هذه الثنائية - وإن صحت لتفسير بعض الجوانب - فإنها - بمنهجها الوضعي - لا تسمح لتفسير كل الجوانب.

لكن الصراع - مع ذلك - لا يرفضه الإسلام كمبدأ عام أولى «وكذلك فتنا بعضهم ببعض»، «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض» ويرى الدكتور عماد الدين أن (هذا الصراع) ممتد في التاريخ «ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم» لكن الدكتور خليل الذي عهم هذا المبدأ وأخذ على هذه المذاهب حلمها (يوتوبيا) أو (عالم البروليتاريا) الهادئ قد ترك شطرا من الآية «إلا من رحم ربك» وهو أيضا عند هذه النقطة قد طبق على عالم الفكر ما طبق على عالم المادة دون أدنى تفرقة بين المجالين، ففي رأينا أنه إذا جاز أن يكون الصراع أساساً أولياً من أسس التفسير الإسلامى للتاريخ فإنه لا يجوز أن نستسلم لهذه (القدرية الصراعية) وإلا فإن محاولتنا علاج المسألة الحضارية سيكون من باب (الحتميات) العامة التي تحمل في كثير من جوانبها جزئيات مقهورة لا تنضوى تحت قاعدة.

وأيضاً فإن كثيراً من جوانب (الواقع) - وليس (الفكر) الذي نوافق فيه المؤلف تماماً - يمكن أن يدخل تناقضها في باب (التعاون) الضروري؛ لاستمرارية الحياة، فالصيف والشتاء والليل والنهار والمرأة والرجل والسالب والموجب والفرد والجماعة؛ كل هذه الثنائيات وغيرها ثنائيات لا تستطيع الحياة أن تستمر دون وجود أى منها، وبالتالي فهي (متقابلة متعاونة) وليست (متقابلة متصارعة) لأنه، لا يستغنى عن أى من المتقابلين فيها وليس كذلك الشأن في المتصارعين.

وتبقى المسألة الثالثة والأخيرة من تلك المسائل التي اتكأ عليها الباحث في تصويره لأبعاد التفسير الإسلامى للتاريخ (سقوط الدول والحضارات) وهى فى رأينا تشبه أن تكون (حقلا تطبيقيا) لمرحلة (التنظير) التى سبقت فى المجالين السابقين : مجال (الواقعة التاريخية) ومجال (المسألة الحضارية).

وفى هذه النقطة تقف الآية الكريمة «وتلك الأيام نداولها بين الناس» كمعلم رئيس فى التفسير الإسلامى لأسباب سقوط الدول.

وهذه (المداولة) تستهدف تمحيص (الجماعات البشرية) وإثارة الصراع الدائم بينها وخلق التحديات المستمرة، وذلك لكى يتم - فى النهاية - إفراز حركة دائمة متجددة فى التاريخ ترفض اليأس والهزيمة والتشاؤم ما دامت الحياة أشبه (بالناعور) الذى يدور فى جميع الاتجاهات.

والفرق الكبير بين الموقف الإسلامى وغيره: هو أنه يطرح إزاء مسألة سقوط الدول والتجارب والحضارات ما يمكن تسميته (الحتمية التفاضلية) أى تقرير حتمية الانحلال والسقوط، لكى تنشأ دول وتجارب أخرى بمجرد أن تستكمل الشروط اللازمة لذلك وأولها عملية (التغيير الداخلى): «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم».

وهذا فى اتجاه الصعود .. أما فى اتجاه السقوط فإن للقضية أبعادا سياسية واقتصادية وأخلاقية وعقائدية تتصل بالقاعدة والقيادات:

- على المستوى السياسى - مسئولية «أكابر مجرميها» و«القوم المجرمين» «فاستخف قومه فأطاعوه..» وعلى المستوى الاجتماعى تبدو ظاهرة التناقض بين القول والفعل واحدة من أبرز أسباب

السقوط: «ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد»..  
وللمترفين - وظاهرة الترف بعامه - القدح المعلى فى الدفع بعجلة السقوط خطوات إلى الأمام كما أن فقدان القيم (الأخلاقية) والعزوف عن (الجهاد) - كهدف إيجابى حركى دائم - من أبرز الأسباب فى عملية السقوط.

\* \* \*

وهذه - بإيجاز - بعض إضافات (النموذج الأول) فى قضية التفسير الإسلامى للتاريخ!

\* \* \*

كان الدكتور على شريعتى - رحمه الله - من خلاصة المثقفين الشيعة الذين يتمتعون بثقافة إسلامية وعصرية واسعة.

ويعتبر كتابه (العودة إلى الذات) ممثلاً لفلسفة شريعتى التاريخية التى تتلخص فى أن العودة إلى الذات - وبالنسبة للمسلمين هى الذات الإسلامية - إنما تمثل ضرورة حتمية يملئها التاريخ وقوانين الحضارة.

المؤلف يجيد الدفاع عن القضية التى يطرحها .. قضية العودة إلى الذات، مقدماً فكره فى اتجاه أصيل يخالف به تماماً تلك التوجهات الغربية العلمانية أو التوجهات الغربية الماركسية.

لكن الإسلام الذى يدعو إلى العودة إليه - على أساس أنه (الذات) هو إسلام (معدل) - كما يقول المؤلف - إسلام لحقه الإصلاح (!! ) وأعيد فيه النظر بوعى، ومرتكز على حركة نهضة إسلامية واعية . إنه



الإسلام - كأيدولوجية - وهو الإسلام الذى بعث الوعى وأحدث المعجزة فى هذه المجتمعات.

إن الذات بهذا الوعى هى الذات الإيجابية القادرة على الوقوف فى وجه التغريب الذى يريد تذويب ذاتنا فى ذات الغرب ، أو يريد محو ذاتنا فى صوفية ميتة كتلك التى يوجه أغلب المستشرقين اهتمامهم إليها ويحققون كل مخطوطة من مخطوطاتها عشرات المرات فى حين أن (٧٩٪) من مخطوطاتنا العلمية تتحلل وتاكلها الفئران.

أو فى تبعية ذليلة تجعل كثيراً من مثقفينا يفكر فى مصير مجتمعه عن طريق إنفاق كل حياته فى قضية الشعر الجديد والشعر القديم والفن للفن والسيد يونسكو وجوزيف دى كاسترو وكأنهم يتعاطون الهيرويين ... ويريدون به علاج مجتمعهم ... فبكيت و كاسترو لا علاقة لذاتى ولا لتاريخى بهما ... بل أنا أنتسب . كمسلم إلى أبى ذر (!!)

الثورى الإنسانى (!!).

وقد كنا نتمنى أن ينتسب المؤلف إلى محمد عليه السلام مباشرة (!!).

إن الذات التى يدعو إليها المؤلف هى ذات تنبع من صميم الناس ... هى ذات إسلامية (نعم) وهى ذات مذهب شيعى (نعم) لكن أى تشيع؟ أهو هذا الذى يعيش قومنا على أساسه ويؤمنون به ... لكن لا فائدة منه قط، إنه من أهم عوامل الركود وعبادة التقليد والجهل وعبادة الأشخاص فالمطلوب العودة إلى الذات الإسلامية!!.

## العودة إلى أى ذات:

عندما بدأت مسيرة المسلمين فيما يسمى بعصر الاستقلال ظهر المصلحون التقدميون يطرحون رؤيتهم للذات المستقلة الجديدة ... لقد اختلقوا لنا ألفاظاً شبيهة بألفاظ الجن، ولم يحاولوا الارتقاء بشعوبهم

بلغة مفهومة بل اشتبكوا مع الألفاظ الرائجة المفهومة واعتبروا مصائب  
شعب جاهل كسول هي الحجاب واللحية والكرسى (وسيلة للتدفئة)  
وبغيت شوهوا حقيقة الحضارة فجعلوها مجرد إنكار الله وإنكار الروح  
والرسول والقرآن وعلى والتحسين ثم القومية والأخلاق ... وقدموا  
أبحاثا فلسفية وكلامية سوفسطائية للفلاحين والعمال المساكين.

ولم يحاولوا زرع بذور الحضارة الحقيقية ... فقط (هدم الإيمان)  
... سع أنهم يعلمون بالتأكيد أن الحضارة هي درجة التكامل في القدرة  
على التفكير واتساع الرؤية وعمق الروح ولطفها والنضج الاجتماعي  
وخلق الوعي الإنساني والإحساس بالمسؤولية، ومعدل الثروة الثقافية  
والقفزات الفكرية والعقلانية واستقلال الشخصية واستعداد الخلق  
والقدرة على الاستغناء والنقد والاختيار وإيجاد ضمير تاريخي  
اجتماعي ...

إن الحضارة مزرعة ينبغي أن تبذر بذورها في المدينة ثم تظهر  
وتنمو ... لكن (الثوريين - التقدميين) (١) تجاهلوا - عن عمد  
ببقيين - كل هذا وركزوا جهودهم في تخريب الوجدان والروح  
وإعلان حرب دائمة على كل ما هو غيبي وكريم وأخلاقي في حياة  
الإنسان !!

لقد نسي الماركسيون - عن عمد أو بلاهة - (وكلاهما خيانة) ما  
يقول به فرويد ويونج - بحق - بأن لكل مجتمع ما يسمى بالاشعور  
(وهو غير الوجدان الاجتماعي) بل هو يعنى خصوصيات المجتمع  
المفروسة من رحلته في التاريخ ...

فليس المجتمع مجموعة أشخاص - في الحقيقة - بل هو (شخص  
إنسان) والأفراد خلاياه - والمفكر (شريعتي) يفضل هنا استعمال كلمة  
(١) والعلماء يرون وعاء للجميع وأفسد الجميع.

(جماعة) بدل مصطلح (مجتمع) - ويفضل مصطلح (قدر التاريخ) بدل مصطلح (حتمية التاريخ) وهذا المجتمع (الجماعة) يخضع لوجود قوانين مسلم بها يستند عليها كل مجتمع ... لكن المؤلف لا يؤيد خضوع كل مجتمع أو أمر اجتماعي أو تاريخي وتأويلهما على أساس القوانين الكلية والأحوال العامة لعلم التاريخ أو علم الاجتماع، ويعتبر ذلك من التعميم العام الخطر وهو نظرة عمومية تؤدي إلى منزلقات...

والحقيقة أن (شريعتي) تخط عند هذه النقطة ، فهو خلال صفحتين فقط يتناقض غير مرة بين الإيمان بالقوانين، وبين عدم الإيمان بتطبيقها ومن هنا - والكلام لشريعتي - فإنني مع إيماني بالوجود العلمي الذي يعرف باسم التاريخ أو الاجتماع أي القوانين الثابتة أو الكلية التي يحيا المجتمع الإنساني على أساسها ويتغير اعتقد أن تأويلها أي تطبيق هذه الأصول والمعايير الكلية الموضوعة سلفا - ولو وضعنا علميا - على مجتمع معين يستوجب ألا نعتبر أن هناك أوجه نقص على الإطلاق فيما نسميه فلسفة التاريخ (....) وكلما واجهتنا ظاهرة عميقة جداً ولأسابقة لها نقوم بتحريفها بشكل ما حتى تكون قابلة للتطبيق والتعليل مع موازيننا.

ولم يستطع (شريعتي) أن يعي أن الأمر ليس كذلك، وأن علم فلسفة التاريخ (وأنا أستعمل كلمة علم عن عمد وسبق إصرار) ليس أرقى من فلسفة الطبيعة، وبالتالي فاكشاف ظاهرة جديدة لايجوز أن يؤدي بنا إلى تجريفها لنخضعها لقوانيننا الصارمة، بل يجب أن يؤدي بنا إلى إلقاء نظرة جديدة في القوانين التي بين أيدينا، وغربلتها وتعديلها وإضافة حلقات جديدة إليها .. ولا تعني الحتمية التاريخية - من وجهة نظرنا الإسلامية - (وأنا أؤيد (شريعتي) في استعمال مصطلح



قدر التاريخ) (القانونية) التي لانسبية فيها، فمثل هذه القوانين لاتزال أبعد من طموحات العلوم الإنسانية ، بل والطبيعية أيضا فى التطور الأخير ... وأيضا ... من وجهة النظر الإسلامية فى تفسير التاريخ - ستبقى نسبة - دائما - للفعل الإلهى المطلق لا يستطيع العقل البشرى اختراق أسوارها ... لأن اكتشاف كل مفاتيح الحركة الكونية أو التاريخية لا يتناسب مع الطاقة الإنسانية ... بل هى ليست فى حاجة إليه ..

لقد توسع كم المعرفة وكيفها - بيقين - فى الحقبة الأخيرة - ولاسيما فى القرن التاسع عشر، لدرجة أن ما طرح من فلسفات التاريخ قد امتد أيضا، فكثرت لدينا المعلومات عن فترة ما قبل الحضارة (ولا أقول ما قبل التاريخ كما يقول شريعتى احتذاء منه بمالك بن نبي)، كما أن علم الآثار وعلم الإنسان (الأنثروبولوجيا) قد أمدنا بفيض كبير من المعلومات المتصلة أوثق الصلة بالعملية الحضارية ... لقد تمزق رداء حتمية الماركسية ... واقتربنا من الإيمان العقلى الكامل (بقدر الله) أو القدر التاريخى الذى يؤمن (بحتمية نسبية) ... وقد نهأت كل أطروحات وتنبؤات الماركسية، ولم يعد ثمة أمل فى سقوط (الإمبريالية) بل الأمل الأكبر الآن هو فى تكيف الماركسية مع كثير من معطيات التقنية والحرية الليبرالية<sup>(١)</sup> .. هذا بالإضافة إلى اهتزاز الأسس العلمية للمادية بعد ظهور نسبية أينشتاين وقانون

---

(١) كان (شريعتى) حالما، ولم تكن عبقريته التنبؤية لتصل إلى عبقرية العقاد الذى حدد ماريح السقوط النهائى للماركسية تحديداً صادقاً بنسبة تزيد على ٩٥% (١١) وماعادت الماركسية قادرة على أى تكيف.. لقد هوت إلى القاع واحتضرت تماماً!!



(عدم الحسم) فى الفيزياء الحديثة وحساب الاحتمالات والأعداد العظمى فى الرياضيات وتعميمها فى العلل الإنسانية..

إنه - بعيداً عن أية مدرسة اجتماعية أو أيديولوجية - فلا بد من أن تتوافر أسس مشتركة لطريق عودتنا إلى ذات واعية فاعلة.

**وأهم هذه الأسس (كما يراها شريعتى) هى :**

١ - أن الوعى الاجتماعى اليقظ لقلب الأمة وضميرها هو الأساس، وبدونه سوف تبقى كل حركة عقيمة ومجردة.

٢ - أن الناس فحسب هم الذين يستطيعون تحرير أنفسهم، وينبغى أن تكون قيادة الحركة فى أيديهم مباشرة ... وما لم يصل قلب الأمة إلى الحماس والانفعال التلقائى، وما لم يصنع الشعب من بينه أبطالاً أو بالتعبير القرآنى الرائع «أميين» وما لم يقدمهم إلى صفوفه الأولى، فلا أمل فى التغيير..

٣ - ضرورة الإيمان بأن الفقر أو الظلم وحده ليس سبب الثورة بل الإحساس بهما هو أساس التغيير، ومن هنا فيجب تغذية هذا الشعور..

**الحتمية التاريخية والإنسان:**

بالطبع .. الحتمية التاريخية عندما تفهم على أنها مرادف للقضاء والقدر - بالطريقة الكونية الاستسلامية - فإن السلبية ستكون هى النتيجة الحتمية .. لكن الانسان هو الذى يستطيع بقدر نضجه وتصميمه - أن يفرض إرادته على إرادة التاريخ (والى هذا القدر ونحن نتفق مع شريعتى)، لكن هناك ملمحاً كان من الواجب إيضاحه، فثمة نوع من الجدلية الرائعة بين الانسان (البطل) والتاريخ .. فهو -الانسان- يستطيع أن يقف فى وجه التيار التاريخى، أحياناً وكما أنه

يحاور الطبيعة ويسخرها فى عملية إبداع رائعة تحرسها (سنة الله) -  
فكذلك يستطيع الإنسان القيام بهذا الدور مع التطورين الاجتماعى  
والتاريخى ... وسيحصل على نسبة نجاح هى النسبة نفسها التى  
تفصل بين الحتمية التاريخية النسبية و(التقديرية الإلهية) المطلقة...  
لقد كنا نأمل أن يبرز (شريعتي) هذه الحوارية الرائعة ...

وفى هذا السياق نفسه نحن لا نؤيد شريعتي فى هذا التعميم الذى  
يطلقه على تاريخنا الإسلامى ، حيث يلتقى (دون رغبة منه) مع  
أعداء هذا التاريخ .. وما كنا نأمل أن نجد عبارة مثل (البيئة السوداء  
المظلمة لعصر الخلافة وعصر المغول) مشحونة بكل هذه الألفاظ الداكنة  
عن (عصر الخلافة) .. دون أن يحدد لنا أية خلافة يقصد ؟ هل هى  
خلافة الأمويين الذين نتمنى الا يكون له موقف (أيديولوجى) منها  
لخلفيته الفكرية والذاتية (!! ) أو خلافة العباسيين ؟ أو العثمانيين الذين  
نحمد لشريعتي أنه مدحهم ، وأنه كشف حقيقة دور (الصفويين) الآثم  
تجاههم (حماية لأوربا من الزحف العثمانى) وبالتأكيد فأنا أستبعد أن  
يقصد عصر الخلافة الراشدة (!! )...

إن هذا التعميم (الظالم) -بالتأكيد- لايجوز أن يصدر عن شخصية  
(واعية) بدور التاريخ التحضيرى ، مثل شخصية (على شريعتي)!! -  
ومرة ثانية نجد (شريعتي) يحاول لشعوره ربما بعدم الانسجام الذى  
المحنا إليه وأسميناه تناقضاً فى فهمه لحتمية التاريخ - يسرد علينا  
تفسيره مرة ثالثة أو رابعة - لحتمية التاريخ ، مقترباً - فى الحقيقة  
- إلى أقرب نقطة صحيحة وصل إليها - فى تفسيره لهذه الحتمية  
مشيراً إلى أهمية عنصرى ( العلم والخلافة ) كعنصرين مساعدين فى  
تغيير الإنسان لحركة التاريخ .

ويعود - شريعتي - ليكرر المبادئ الثلاثة وهى مبادئ الوعى

الاجتماعى، ودور الأمة «كمجموع»، وأهمية الإحساس بالكوارث وهي المبادئ التى يراها (شريعتنى) أساساً لعملية التغير والفاعلية... وكلها تعود إلى تعميق دور (الوعى) الذى يسبق مرحلة التغير.

### الإحساس بالماضى والتغريب:

إن خطورة عملية التغريب لا تتمثل فقط فى التشبه فى الملابس أو العادات أو سلوكيات المرأة... بل تتمثل فى جماعة المثقفين الذين يفترض أن لديهم فكراً، فاعتراّب هؤلاء هو سبب الكارثة (القومية) (!! ) والشلل الاجتماعى، ذلك لأن الفئة الأولى من البشر الذين صاروا (أشياء) فإن «الأوربة» عندهم فى الجسم، أما الفئة الثانية فهم (فكر) وعندما يشل الفكر ويفقد القدرة على التحليل والاختيار ويتحول إلى صورة (مستملى) للآخرين فالأمر مصيبة (!! ) وعن طريق إلغاء هؤلاء المثقفين لأنفسهم، وإنكاره دوره فى التاريخ واحتقار كل ما يمت إلى ذاته، والفرار من كل ما يذكره بماضيه، والتشبه بالآخرين يبحث لنفسه عن شخصية جديدة وصفات جديدة وقيم جديدة... ولهذا كان هم الاستعمار تخلية الأمم ذوات التاريخ العميق والثقافة العالمية من محتواها وفصلها عن تاريخها بواسطة الحيل العلمية وعلم الاجتماع المعقد الذكى... حتى يصل بالمثقفين إلى هذه المرحلة الخطرة... أى مرحلة ضياع (الأناتاريخى) والذوبان فى (الهو الأوربى)... فمثل هذه المخلوقات (الجديدة) المفرغة من ماضيها وجنورها وقيمتها... إذا ما فقدت التقليد للأوربى - والتشبه به - تصير وجوداً فاقداً للماهية.. لأنها فقدت وجودها الحقيقى وانفعالاتها الأصيلة... ومثل هذه المخلوقات التى فقدت نفسها لا تستطيع أن تقوم بدور فى حضارة أمتها...؛ لأن الإنسان وليد التاريخ، والشخصية الإنسانية للفرد هى مجموعة الخصائص التى استمدتها من تاريخه.



والشعوب التى فصلت عن تاريخها تدهورت إلى مستوى الأمم الفاقدة للحضارة والثقافة .

إن الاستعمار لكى يستطيع خلغنا من ماضينا لنكون فى (العراء) يروج بيننا خطورة ما يسميه (بالتعصب) لكى ننفث على تراثه وحضارته ونترك ولأعنا لحضارتنا ونصبح عصريين مستهلكين ، وقد كان جمال الدين الأسد أبادي (بل هو الأفغانى --راجع محسن عبد الحميد ومحمد عمارة) يدرك خطر لعبة العصرية قبل قادة آسيا وأفريقيا التقدميين كلهم... ومن هنا وقف ضد تأسيس (بنك أمريكى) وضد صور العصرية الاستهلاكية التى تحول المدن الإسلامية إلى قصور فخمة وعمائر ومطاعم ومقاه ومجلات فخمة، وتصبح المدينة مخزنا دولياً للسيارات، ومعرضاً عالمياً لسيارات آخر موديل وأجهزة التلفاز والبلاجات ومؤسسات الزينة والنوادي والحدائق الأوروبية الشكل... هذه (العصرية) الجاهزة تقدم للمسلمين والعرب البسطاء بديلاً للحضارة والتحديث الصحيحين اللذين يعبران عن النضج الثقافى والمعنوى فى المجتمع وفق خطط وتضحيات وصبر وألم وأيديولوجية ورؤية كونية متحركة وإيمان ووسائل وحدة فى المجتمع.

- لقد ظن البعض أن الفلسفة والثقافة والعلوم التقنية والاداب والفنون هى التى تصنع الحضارات، وهم فى غفلة عجيبة، فلقد وضعوا المعلول مكان العلة... فهذه الأمور (نتيجة) حتمية للحضارة الحقيقية... ومواد الحضارة ومعماريوها هم قادة الحركات الذين يكونون غالباً (أميين) لكن لهم رسالة اجتماعية... وقد يكونون مثقفين ، ولكنهم من القلة المفكرة التى تملك وعياً سياسياً واجتماعياً وتحس بارتباطها بمصير المجتمع وتهضم قضاياها الاجتماعية وحضارته!!

إنه المفكر (قبل أن يكون مثقفاً) الذى يعرف مجتمعه معرفة



حقيقية ومباشرة ويحس بالآلام عصره وحاجته ومثله، إنه الذى يستطيع أن يحدد فى أى مرحلة من التاريخ يعيش مجتمعه أو بعبارة أخرى ما هو (زمانه الاجتماعى)!!

### الاتحاد الاستعماري الرأسمالى الشيوعى :

فى الحرب العالمية الثانية تزوجت الرأسمالية الشيوعية، ووجدنا بعد قليل إيدن المستعمر وابن جوربون وجى موليه الاشتراكى يقومون بحملة واحدة .. ووجدنا أمريكا وروسيا - نتيجة هذا الزواج الحرام - يفرزان لنا ابنة غير شرعية نتيجة للزنا الذى حدث بينهما فى الحرب الثانية هى ما يسمى (بإسرائيل) التى يرهاها الطرفان على السواء حتى اليوم ... وبنشاط غريب وذكاء رأسمالى مشترك وبروح المسالمة والتعايش الذى تعانقته الشيوعية والرأسمالية ... فتصالحتا الأطروحة وعكس الأطروحة وصارتا يداً واحدة وفكراً واحداً .. والشيوعية والرأسمالية كلتاهما تضع فمها فى مخلاة البرجوازية ... المخلاة المليئة من خراب الشرق ونهب آسيا وأفريقيا .. لقد ينست الشيوعية من صحة نبوءتها بانهييار الرأسمالية، ولم يعد أكثر الماركسيين تفاؤلاً ينتظر على الأقل (كما يقول شوارتز) فى المائة السنة القادمة حركة ثورية فى البروليتاريا الأمريكية .. وبالتالي اضطرت الشيوعية القبول بأى مهر من فضلات الرأسمالية وقبلت السفاح !!

وهكذا فالرأسمالية والشيوعية لم يعودا يختلفان (أيدولوجيا) بل يختلفان فقط على تقسيم نحاسنا وأرضنا وبترونا... (١)

(١) على الرغم من سقوط الماركسية بأكثر مما كان يتوقع لها إلا أننا نسجل هذه الحقائق ليحفظ للفكر الإسلامى دوره فى حركة مقاومة الفكر الشيوعى، وفى الرؤية الاستشراقية بسقوطه، متفوقاً على كثير من الأفكار والأطروحات.

إن الماركسية فقدت (ذاتها) من زمان، حتى المشهورين بأنهم من غلاة الماركسيين هم قوميون أكثر منهم ماركسيين، و (كاسترو) قومي قبل أن يصير شيوعيا... والشيوعية ستار يتلفع به لحماية كوبا من النوبيان في ساعة فناء، أي في مواجهة أكبر قوة في التاريخ حسب علمنا... (واسألوا سارتر نفسه عن حقيقة كاسترو وقارنوه بسوكارنو وابن بيل ونكروما ولومومبا... فهم شيوعيون (مهنة) لا عقيدة... لكي ينفخوا ضد الاستثمار... ولقد وقف ماركسيو فرنسا مع احتلال فرنسا للجزائر باسم (القومية)...

إن الإسلام هو (قوميتنا) وهو الذي يستطيع أن يقود (بسبب روحه السياسية والحضارية الخاصة) بل ويتعهد بتحقيق رسالتين اجتماعيتين؛ إيجاد الرباط الثقافي المباشر للذات وملء الفجوة بين عوام الناس ونخواس المفكرين، ومن ثم فهم الواقع كما هو وإخضاعه للقيم أي بتغييره وفقها... وليس (بالعلم للعلم) كما يقول السذج الذين يريدون التفرقة بين الواقع والقيم، وظنوا علم الاجتماع مثل الرياضيات الحديثة... علم بلاد أي التزام نحو التغيير الحضارى...

والارتباط بالقيم سيحول دون استثناء هذه الآفة الخطيرة المدمرة للمجتمع برؤوسها المخربة الثلاثة: رأس «الشللية» الثقافية أو المظلة الحزبية أو الأيديولوجية التي يحتمى فيها أهل الفكر والأدب، ورأس التعصب لدين (الانتلجنزيا) أي الاحتراف الجامعي واحتلال حملة المؤهلات الفارغين من الفكر للوزارات والمصالح... فهذه الرؤوس الثلاثة المخربة تقف بالمرصاد لكل مصلح أو مفكر محايد... ومرة أخرى - وأثناء تحليله الرائع - يسقط (شريعتي) في هاوية الموقف المذهبي المسبق، فيعمم حكمه، ويدين ضمنا مائة سنة (تسعين !!) حكم بنى أمية وستمائة سنة حكم بنى العباس... فماذا بقى من تاريخنا؟.

لكن - بعيداً عن هذه التعميمات العابرة - يكشف شريعتي بعلمية كاملة - تلك الشركة المتحدة المجرمة الجديدة ... شركة الرأسمالية والاشتراكية المتفقتة على تقسيمنا، والمختلفة - لا على مذهبية أو أيديولوجية - بل - فقط - على نصيب كل منهما منا...!! وينجح شريعتي في تعرية هذه الشركة المتحدة علينا كل النجاح.

\* \* \*

يوضح شريعتي جانباً مهماً... فقضية الميل إلى اليسار الاشتراكي أو الليبرالية أو الإلحاد قضايا ليست في بساطة (الكوافير) أو رفع السروال ... ولا حتى من نوع القضايا العلمية في الفيزياء والكيمياء والتكنيك الرياضي، فلها جانبها الفكري والأخلاقي والإنساني ... ولها ارتباط بالخصائص الروحية ونوع الرؤية والضمير والشخصية...

وفي هذا السياق الجميل يسقط شريعتي مرة أخرى في إحدى الجزئيات حين يورد لنا حديثاً بلا سند (وهو مما لم نعرفه) يقول فيه الرسول: (لو علم أبو ذر بما في قلب سلمان لقتله) (فأى معجزة هؤلاء) ؟ ولمقاومة التغريب لابد من فهم الغرب - فالتغريب كالسم يطرد بنفس الترياق... لكن المعرفة المطلوبة هنا هي معرفة الثقافات... لا معرفة الأقزام (وهذا ما لم يوضحه شريعتي)!

إن مناخ التغريب و «العلموية» قد ظهر في ظروف لا تمت إلى حضارتنا بصلة فهناك الجنوح المضاد للسلوك الكنسي الإرهابي والجهاد من أجل طرد الدين من مسرح الحياة والمجتمع والعلم... وهناك - في عالم الكنيسة توجد علاقة عكسية بين الدين والحضارة، وكانت الكنيسة هي الغطاء المعنوي والثقافي لنظام الإقطاع... ومن هنا كانت



«العلموية»... وأين هذا من طبيعة حضارتنا ؟ دعك من رفض الدنيا والزهد الكاذب ومحاربة الشعور القومي (!! ) والاستقلال السياسى وتدخل الكنيسة فى كل شئ... ومن هنا ظهر (الثالوث) الخطير الذى أفرزته العلمانية من خلال حركة مقاومة الطغيان الكنسى... ثالوث (رفض الالتزام) لصلته بروح الكنيسة، والاعتماد على المشاهدة (الحسية) ورفض الغيب (الكنسى) (والغرور) العلمى فى مواجهة الإذلال الكنسى السابق... وهذا الثالوث رد فعل واقعى للهيمنة الكنسية، ولا علاقة له بنا لينقله بعض صبياننا.

ونحن مع (شريعتى) فى ضرورة تحديد (جغرافية الكلمة) فقد تكون كلمة (القومية) معقولة فى المحيط الغربى للتخلص من الكنيسة، وقد تعطى أثارا سيئة فى المحيط الإسلامى، ومثلها كلمة (العلمانية) وهكذا... وعلى مفكرينا تحديد جغرافية الكلمة وإطارها التاريخى حتى لا يتورطوا فى نقل أعمى يضيع كثيرا من الخطوات... بحركة عمياء غير واعية بالجغرافية والتاريخ!!..

وهكذا يقدم لنا (النموذج الثانى) عدداً من الإضافات فى حقل الرؤية الإسلامية للتاريخ.

\* \* \*

أما النموذج الثالث فيقدمه لنا الدكتور محمود محمد سفر حول عنوان: (الحضارة تحد). ... وعناصر التحدى الحضارى كما يراها الباحث الدكتور محمود سفر - تكاد تنحصر فى القضايا التالية:

- ١ - شحذ الفعالية الروحية.
- ٢ - استيعاب حضارة العصر.

٣ - تبني أساليب الحضارة المعاصرة أو إبداع البدائل.

٤ - حماية المنجزات الحضارية.

ويتصل بالقضايا السابقة معالجة قضيتين هما:

١ - فكرنا والحضارة المعاصرة.

٢ - قيود البعث الحضارى.

ومن ثم يعالج الباحث (الأركان الأساسية للحضارة) وهى:

١ - تأثير الإنسان (الكثافة السكانية).

٢ - تأثير المكان.

٣ - تأثير الزمان.

٤ - عنصر القدوة (مع بعض النماذج).

ففى مواجهة التحدى الخطير الذى تواجهه أمتنا فى العصر الحديث، ولكى تستطيع أمتنا أن تجد لها مكاناً وسط عالم يقوم على الصراع الحضارى من أجل الحياة والبقاء، وبتعبير آخر، فى مرحلة الإقلاع الحضارى لأمتنا المسلمة يقف أمامنا سؤال خطير يحتاج إلى إجابة قوية وعملية:

- هل يستطيع مسلم اليوم بما يملك من عقيدة وإيمان وإمكانات مادية أن يعبر الفجوة الحضارية التى تفصله عن حضارة العصر، وأن يستوعب حضارة العصر، حتى يكون قادراً على وضع حضارة تحمل هويته وتعبر عن شخصيته وتفرض نفسها على الحضارات الأخرى؟

- ويجيب الباحث على هذا السؤال الأساسى بقوله:

- إننا نستطيع مواجهة هذا التحدى إذا ملكنا روح المسلم الأول الذى كان يتمتع بقوة العقيدة وعمق الإيمان وصدق العطاء.

وبجانب روح المسلم الأول لابد أن تكون لدينا البسيورة والقدرة على حماية أنفسنا من الوقوع فى شرك التقليد والمحاكاة للحضارة الغربية دون تفريق بين مزاياها ومساوئها ...

وما دام (الإنسان) هو محور العملية الحضارية، فإن شحذ فعاليتها الروحية أمر جوهري. ويرى الباحث أن شحذ الفعالية الروحية يخضع لعدة عوامل أهمها دور «المنزل»، وبرامج التربية الدينية، وبرامج الانتماء الوطنى ووسائل بثها، والقدوة السالحة وما ترسمه من منهج عملى... ولعل الباحث يقصد من (برامج الانتماء الوطنى) دور الإعلام، لكننا كنا نؤثر - عند هذه النقطة - النفس الدريع الواضح على دور الإعلام فى شحذ الفعالية الروحية، فلا شك فى أن دور الإعلام - فى هذا العصر أصبح خطيرا كل الخطورة، بل هو اختار من بعض الأدوار التى ذكرها الباحث، بل هو يستطيع الإلهام فى كل الأدوار التى ذكرها، وهو فى المقابل من الطغيان بهيث يستطيع - أيضاً - إفساد كثير من فعاليتها...

وعند هذه النقطة - أيضا - كنا نؤثر أن يستعمل الباحث مصطلح (التربية الإسلامية) بدل التربية الدينية... وفيما سوى ذلك فنحن نوافق فى كل ما ذكره بل إنه كان موفقا غاية التوفيق، فى كثير من جوانب تحليله، ولا سيما عندما مزج مزجا كاملا بين برامج التربية الوطنية، وبرامج التربية الدينية (!!)، وأكد على ضرورة أن تتكئ الأولى على الثانية، والا تنفصل عنها من حيث المحتوى والقيم والنماذج والأمثلة.

ويرى الباحث أن مهمة شحذ الفعالية... الروحية الأمة منوطة بنوعية خاصة...: (إنها مهمة النفس القدوة المؤمنة بالله ووحده إيماننا عقلا نيا لا يخالجه شك ولا تحيط به ريبة... إنها مهمة النفس القدوة



التي تخاطب العقول وتوقظ المشاعر وتضع حلولاً علمية عملية لمشكلات المجتمع، كي يكون قادراً على مواجهة تحديات الحضارة) وهي أيضاً مهمة الجامعات ... - وليست مهمة السياسي - وليست هي كذلك مهمة حفظ التراث، فهؤلاء مشغولون بتنظيم الكتب في رفوف رءوسهم.

وليست هي كذلك مهمة المهنيين المنشغلين بدقائق مهنتهم، ونحن في الحق - لاندري سبباً لاستثناء طوائف معينة من مهمة شحذ الفعالية الروحية - أليس كل هؤلاء من ذوى «المنازل»؟! وبالتالي، أليست الفعالية الروحية دعوة عامة يتحمل كل منا نصيبه فيها على قدر حجمه وقدرته، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، اللهم إلا أن يكون الباحث الكريم قد قصد الحديث عن (القادة الحضاريين) فيمكن - عند هذا المستوى - تخصيص طوائف قيادية معينة... وأيضاً فإذا كان بعض حفظ التراث - كما وصف الباحث : فالحق أن كثيراً منهم لم يكونوا كذلك، بل كانوا - أيضاً - قادة حضاريين ، وفقهاء واعين بالمهمة التاريخية والإسلامية المنوطة بهم... وبالتالي فلا يمكن استثناء هؤلاء من مهمة القيادة الروحية!!.

ومرة أخرى - عند هذه النقطة - كان الأمر يحتاج إلى إشارة واضحة عن دور الإعلام والأدب والفنون في شحذ الفعالية الروحية المطلوبة للأمة في مرحلة إقلاعها الحضارى!!.

\* \* \*

إن الباحث يقف أمامنا ثابت المنهج قوى الاستيعاب صاحب رؤية حضارية ممتازة عندما يحدثنا - في النقطة التالية - عن استيعاب حضارة العصر... فالعلم - بلا شك - هو الأساس الذي قامت عليه

حضارة العصر... ونحن معه، في أن مدخلنا نحن -المسلمين- إلى هذه الحضارة لن يكون إلا بالعلم... أى عن طريق شحذ الفعالية العلمية - بعد الروحية - للأمة... ولعل هذا معنى من معانى بداية القرآن بآية «اقرأ باسم ربك»!!.

وخلال الرحلة من «كبلر» إلى «نيوتن» إلى «أينشتاين» استطاع الغرب أن يخرج من مرحلة «التكديس» العلمى إلى مرحلة «التقنين» العلمى!!.

وأمتنا مدعوة إلى أن تمر بسرعة -بهذه الرحلة - من خلال استفادتها الكاملة، ومعاناتها الصادقة، لعملية الميلاد العلمى، ومن خلال مزاولتها -أيضا- بين العلوم والحرف المهنية، وإدراكها أن أرباب التكنولوجيا الحديثة لن يسمحوا بتعليم دقائقها لأخرين، (وهذا هو الواقع فى عالمنا المعاصر للأسف الشديد) إننا يجب أن نعى جيداً أنه لن يمكننا الحصول على دقائق التكنولوجيا المعاصرة حتى ولو دفعنا من أجلها المال الوفير!!.

والباحث يصل إلى قمة المواجهة الصادقة لواقع أمته حين يقول لها: «إن ما يسمى بنقل التكنولوجيا من دولة متقدمة إلى دولة متأخرة هو فرية كبرى صدقتها شعوب العالم الثالث، وظنت معها أن التكنولوجيا سلعة تبيعها لها الأمم المتقدمة من أجل المال».

«طريقنا إلى التكنولوجيا الحديثة لا بد أن يمر بمراحل علمية تشبه التطور الزمنى فى بلاد الغرب».

«إن الذى يزيد النفس حسرة هو أن شعوب العالم الثالث ما زالت تعيش فى هذا الوهم الكبير بعد أن نسجه لها خيال نفر ممن فقدوا صفاتهم، وافقدوا خصائصهم أمام انبهارهم بحضارة الغرب وتعلقهم

بتقدمه التقنى فانخدعوا له وخذعوا شعوبهم به» .

وينتهى الباحث - بعد إيضاحه لأبعاد هذه الرؤية الرائعة إلى أن (استيعاب حضارة العصر يعنى استيعاب الأصول والطرائق والنظم، أما الدقائق فهذه لا يمكن لأصحاب الحضارة منحها وإنما تدرك بالممارسة الواعية والتفاعل البناء)!! .

والأمة المسلمة، وهى تعالج عملية التطور، لابد لها أن تملك النظم الحاكمة للمؤسسات الحضارية المطلوبة، وأن تعى أن النظم الحاكمة لا تولد فنية متكاملة، بل تبدأ طفلة وتنمو مع التجربة والمحاولة والخطأ والصواب.

وأمامها خياران فى هذا السبيل، أن تتبنى المؤسسات الحضارية الغربية مع تعديلها - عن طريق الممارسة والتجربة - بما تحقق المبادئ والقيم والأخلاقيات الذاتية... (وهذا فى رأينا صعب) !!

- أو أن تبدع البدائل وهذا فى نظرنا هو الحل الحضارى الأمثل ... ونحن مع الباحث فى أن عملية البدائل يتولاها أهل الاختصاص فى ظل مراقبة حماة الحضارة أصحاب العقلية الفقهية المجتهدة الواعية!! .

وأثناء عملية المعاناة الحضارية والمواجهة، وإبداع البدائل، يجب أن لا نغفل عن (حماية المنجزات الحضارية للأمة) بالتركيز على جانبين:

- جانب الحماية الذاتية عن طريق ذات الفرد المسلم المواطن المتجاوب حضاريا، والواعى بسنن الله فى الكون وبآفات الحضارة.

- وجانب الحماية الخارجية المنوطة بأجهزة الدفاع العسكرية والاجتماعية والدفاع الفكرى والنفسى.

وهنا - عندما نقوم بكل هذه الشروط - تكون رحلتنا إلى



الحضارة، منذ الإقلاع، وحتى الوصول، رحلة آمنة تمشى فى الطريق المستقيم.

\* \* \*

فى الشوط الثانى من رحلة الباحث، بعد أن قدم لنا بسطاً طيباً لعناصر التحدى الحضارى للأمة، يواجه الباحث - معنا - قضية من القضايا الأساسية فى عملية الرؤية الواعية لمعالجة التحضر... إنها قضية (فكرنا والحضارة المعاصرة)، ومروراً بتعريفات ابن خلدون للحضارة، وبما اصطلح عليه كثير من المؤرخين من التفرقة بين مصطلحات الحضارة والمدنية والثقافة، على أساس أن الحضارة مستوى معين من الرقى تشمل المصطلحين التاليين، أما المدنية فتختص بالجانب المادى، وأما الثقافة فتختص بالجانب الفكرى...

مروراً بهذا كله يرى الباحث من منظور إسلامى أن الالتحام قائم بين هذه المصطلحات، وأن مدلول الحضارة مزيج من الرقى فى مجالات شتى كالأخلاق والسلوك والتربية والعلوم التجريبية والبحث...

وفى ظل هذا الفهم الشمولى يجب على الإنسان المسلم أن يتمسك بمفهوم الحضارة الفكرى الشامل، وأن لا نفرط فى التسلسل المنطقى لإنشاء الحضارة، أو قل - إن شئت - لبدء دورة حضارية جديدة فالفكر هو البداية، ثم تأتى المدنية بصور تقدمها المختلفة، وليس العكس!!.

وليس الفكر المقصود هنا - إلا فكر القرآن والسنة وما انبثق عنهما من اجتهادات ونظم وقيم حياة أصيلة ومبتكرة... أما الفكر التراثى بتراكماته الفكرية والإيجابية والسلبية، فمن الضرورى إخضاعها لعملية غربلة لا تفريط فيها ولا إفراط على ضوء قيم القرآن والسنة

والموقف نفسه يجب أن نقوم به فى غربلة الفكر المعاصر ، ومن خلال :

- ١ - القرآن والسنة .
- ٢ - غربلة الفكر التراثى (الماضى) .
- ٣ - غربلة الفكر المعاصر (الحاضر) .

من خلال هذه المنظومة نستطيع أن نصل إلى الفكر الذاتى ، لكى يكون منطلقنا فى البدء الحضارى صحيحاً ومستقيماً وشاملاً .

وهنا تبدو قضية (جمود الفكر) من أبرز (قيود البعث الحضارى للأمة) : «وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون» (البقرة ١٧٠) .. وبدهى أنه (عندما تفقد الأفكار ديناميكيته، تبدأ النظم فى فقدان ديناميكيته، وهكذا دواليك لتصل الأمة إلى ما نسميه فترة الانحطاط حيث تتجمد الأفكار والنظم معاً) .

ويتبع هذا الجمود الفكرى ، ما يسميه الباحث (القيود الاجتماعية) أى صور الجمود ، التى تتجسد فى بعض العلاقات الاجتماعية ، وتعوق الضمير الفردى من الانطلاق وتحدّه فى إطار الضمير الاجتماعى ، ولو كان مخطئاً ( ومن صورة المجاملة والتواكل والإسراف فى الاستهلاك فى المناسبات والأعياد والركون إلى الكسل وعدم إتقان العمل وعدم المحافظة على المواعيد .. ) .

وكل هذه قيود اجتماعية ليست من الإسلام فى شئ !!

ويقتضى منا البعث الحضارى تغييرها ، حتى لا تمنعنا من الانطلاق !!

\* \* \*

## والإنسان !!

هو الثروة الكبرى التى يجب أن نحرس عليها فى كل مراحل إبداعنا الحضارى .

وكما أشار الباحث - سابقاً - إلى الإنسان عند شحذ الفعالية الروحية والعلمية.. ها هو ذا - مرة أخرى - يعود ليتحدث عن «الإنسان» من زاوية ثالثة... إنها زاوية (الكثافة السكانية) ، وعلى عكس ما يرى المسحوقون فكريا ينتجه الباحث صوب الحقيقة الكبرى ، وهى أن (الكثافة السكانية) شرط من شروط انطلاقنا الحضارية لكن بشرط تحقيق الفعالية الاجتماعية ، أى قدرة الإنسان على العطاء والتضحية من أجل أمته ووطنه «فالكثافة السكانية المثلى سوف تحددها طبيعة العصر ، ولكنها لا بد أن تقع بين قيمتين أساسيتين: قيمة صغرى أى إفراز الكوادر الحضارية المطلوبة ... والقيمة الكبرى أى عندما يصل المنحنى الحضاري إلى حالة تشبع فيصبح هناك فائض بشرى لا تستطيع الإدارة الحضارية أن تستوعبه فيصبح معوقاً لابد أن تتنبه لخطورته أجهزة الحضارة فتعدل من نفسها من أجل استيعابه الكامل»...

وهنا نصل إلى النتيجة الصحيحة التى انتهى إليها الباحث وهى : «أن الخطأ ليس فى الكثافة السكانية... وإنما بأن تعدل الإدارة الحضارية نفسها» «ومن الغريب أن نشاهد فى مجتمعات نامية من ينادى بإصلاح الأمور عن طريق تحديد النسل بينما الأجدى هو زيادة الفعالية الاجتماعية للفرد»..

والبيئة .... بعد الإنسان - بما يكمن فى أعماقها وبما ينمو فوق سطحها ، تؤثر تأثيراً بالغاً فى قيام حضارة وبقاء أخرى ... وللبيئة دورها الجمالى ، عن طريق الضمير الجمالى الذى ينبثق من المكان



بخصائصه، ويتفاعل مع الإنسان فيرتبطان -معا- برباط وجدانى.

ولقد قامت معظم الحضارات حول الأنهار وفى مناخات معتدلة وكان ذلك لازماً للتفاعل الحضارى، مما يجعل أماننا (شرطاً مكانياً) فى عملية التحضر، وهو ضرورة أن يصل التفاعل بين الإنسان والمكان إلى مستوى العصر لأن هذا يعنى مزيداً من الكنوز والكشوفات... والتسخير... والعطاء.

وكما للمكان تأثيره (فللزمان) تأثيره أيضاً. وبتطبيق عنصر الزمان فى عملية تطورنا الحضارى يلزمنا السير بمعدلات النمو الزائدة، عبر مراحل التطور، حتى نسد الفجوة التى تفصلنا عن حضارة العصر...

- من مرحلة التكسب التى تتميز عادة بالبطء.

- إلى مرحلة الاستيعاب... للجوهر.

- إلى مرحلة الإبداع، حيث تجد الأمة نفسها وجها لوجه مع الينابيع الأساسية للإبداع الإنسانى المعاصر. وتسرع حينئذ مسيرتها رويداً رويداً... فكلما حققت نصراً زادها ذلك ثقة ورسوخاً... فإذا واصلت العمل مدركة لكل مقومات ومتطلبات قيام الحضارة فإنها ستصل لا محالة إلى مرحلة الإبداع، حيث يصبح معدل نموها «أسيّاً» متزايداً ونعنى بالنمو «الأسي» هنا أن يحدث تطور سريع ومبدع فى فترة زمنية قصيرة نسبياً إذا قيست بمقدار التطور والنمو الذى حدث خلالها..

وأخيراً.. يعرج الباحث على مؤثر آخر فى رحلة الإبداع الحضارى، بعد الفكر والزمان والمكان... إنه تأثير النموذج البشرى فى المسيرة الحضارية..

فمن طريق عودة الأمة إلى الصفحات المشرقة من تاريخها تستطيع الأمة أن تكسب القوة والمناعة ضد أمراض المواجهة الحضارية، وأيضاً فإن النموذج البشرى الفردى أو السلوكى العام يستطيع أن يجعل مشوار التحضر واثق الخطا عميق المردود... قادراً على الفهم البصير للحاضر بأحداثه ومنجزاته، والمستقبل بتطلعاته، وآماله.

ومن خلال نموذجين بشريين، أحدهما فردى، والآخر جماعى تمثل فى الجماعة المؤمنة كلها...

من خلال (سلمان الفارسى) كنموذج للسعى الدؤوب نحو الحضارة الحققة، وتخطى كل العقبات الحضارية حتى الوصول إلى مرحلة ثبات الإيمان أمام سائر العقبات...

ومن خلال (موقعة بدر) التى مثلت منعطفاً خطيراً فى التحدى بين بقايا حضارة جاهلية متهاكة، وحضارة إسلامية تعيش مرحلة الميلاد، وما ضربه الرسول والمسلمون فى هذه الموقعة الخالدة الفاصلة من مواقف العظمة، ومشاهد البطولة، وأسلوب القيادة ومدى تجاوب الجماعة مع قائدها.. والتضحية فى سبيل المبدأ والحضارة الجديدة بكل قيم الحضارة المتهاكة وموروثاتها وعلاقاتها وموازينها.. نقول: إنه من خلال هذين النموذجين نجح المؤلف فى أن يعطينا من خلال (الحركة الواقعية) النموذج الذى كان تجسيداً حياً للمبادئ النظرية التى قدمتها حضارتنا الإسلامية فى هذا الطور من أطوار المبعث.

وإن حضارتنا لقادرة دوماً على إعطاء النماذج، وتقديم الغذاء الحضارى الكافى للجماعة المؤمنة خلال رحلتها فى التاريخ.

الفصل

الثاني

موقف الفكر الإسلامي المعاصر

من الحضارة الحديثة





## توطئة:

إن اللقاء بين حضارتين فى بعض منعطفات التاريخ عملية من أخطر العمليات التى يمر بها موكب البشرية الطويل.

وعندما لا يكون اللقاء متكافئاً، فإن القضية لا تحتاج إلى معاناة فى البحث، فغالبا ما تكون النتيجة معروفة، وهى انسحاق الحضارة الضعيفة تحت وطأة الحضارة القوية... وحسب الضعيفة أن تترك بصمات على جسد الحضارة الغالبة، سواء كانت هذه البصمات ظاهرة أم غير ظاهرة.

أما إذا كانت الحضارتان قويتين... فإن البحث - فى هذه الحال - يحتاج إلى عناء ودأب ورؤية نافذة... وقد تكون عناصر القوة مختلفة، ولكن المهم أن تكون ثمة شروط مؤهلة للبقاء والصمود فى كلتا الحضارتين، بحيث تتحقق فرصة كافية للصراع، ولا تهزم إحدى الحضارتين فى نهاية الشوط - ولو بعد خمسة قرون - كما سقطت حضارة روما فى رأى جيبون، مؤرخ سقوطها الكبير!!

ولا يستطيع إنسان أن ينكر أن (الحضارة الأوربية الحديثة) حضارة من أقوى الحضارات التى شهدها تاريخ الإنسان على هذه الكرة الأرضية.

وعلى الرغم من أننا ندرك أن لكل حضارة (عناصر قوة) ولربما لم تستطع حضارة أوربا أن تصل إلى ما وصلت إليه بعض الحضارات السابقة حتى فى المجال العلمى البحث... كفن المعمار وعلم التحنيط عند الفراعنة... ومع ذلك فمما لاشك فيه أن الحضارة الأوربية - فى جملتها - قد تجاوزت كل الحضارات فى المجال العلمى والمادى بآماد

طويلة .

إنها الحضارة التي جعلت العالم يبدو (قرية صغيرة) بفضل وسائل المواصلات والإعلام اللذين بلغا شأواً بعيداً لم تحلم به أكثر الحضارات .

وقد التقت هذه الحضارة التقاءها الأخير بالحضارة الإسلامية على مشارف القرن السادس عشر الميلادي، بعد أن كانت قد هزمت أمام المسلمين قبل ذلك، وبعد أن كانت قد جلست - في أدب تارة وفي دموية تارة أخرى - عند أقدامهم تتلمذ عليهم في العلوم والآداب والفنون، سواء في الأندلس (٩٢-٨٩٨هـ - ١٤٩٢م) أم في عدد من جزر البحر الأبيض المتوسط، مثل صقلية وكريت ورودرس وقبرص وبعض مدن جنوب إيطاليا، أم في الحروب الصليبية التي استمرت قرابة قرنين من الزمان .

وقد أدركت أوروبا - من هذه اللقاءات - أنها أمام حضارة قوية ذات بناء روحي ومادي قوي، وأدركت - كذلك - أن البناء النفسي والفكري للأمة المسلمة هو السر القوي في صمودها التاريخي، وفي إفلاتها من محاولات الإبادة التي تعرضت لها - غير مرة - على يد التتار والصليبيين .

فلما كان لقاءها الأخير بهذه الحضارة على مشارف القرن السادس عشر كان لديها وعي تاريخي يكفل معرفة خصمها الذي سبرت غوره في الحرب والسلام على السواء . . .

وبينما كان هذا حال الحضارة الأوروبية - كان الأمر على العكس بالنسبة للحضارة الإسلامية ومفكريها . فهؤلاء المفكرون المسلمون في مجموعهم على امتداد القرنين اللذين بزغت فيهما - بوضوح تام -



شمس الحضارة الأوربية، (وهما القرنان التاسع عشر والعشرون) كانوا بعيدين - إلى حد كبير - عن معرفة الخصم الذي يقاومونه، وعن معرفة أسرار قوته، وعناصرها. ولم يحاولوا باتفاق ولو نسبي - أن يدرسوا الخصم، وصولاً إلى معرفة أفضل أساليب مقاومته. وقد جنحت مواقفهم بالتالي إلى رافضين لهذه الحضارة بالمرّة، وخيل إليهم أنهم قادرون على دفن آذانهم وأعينهم وبقية حواسهم في الرمال، وعدم الاعتراف بهذه الحضارة التي يعتبر من أكبر خصائصها قدرتها على الدخول إلى كل بيت... والنفاد من كل هواء... وللأسف فلا تزال بقية من هؤلاء موجودة حتى الآن !!

وعلى النقيض منهم هناك آخرون راحوا يأخذون الموقف المقابل فيهبطون إلى قاع الحضارة الأوربية مغلقين آذانهم وأعينهم - بطريقة مختلفة - عن كل دعوة للنقد أو التمحيص... لقد قبلوا الحضارة الحديثة بالجملة كما رفضها الآخرون بالجملة.

وهؤلاء وأولئك مخالفون لشروط الاحتكاك الحضاري، وهم غير واعين بأبجديات الصراع الذي يقتضي اللقاء بين حضارتين الالتزام بها. إذ إن الرفض الكامل والقبول الكامل إنما هما معا (غيبة) للعقل وعجز عن (الاستجابة للتحدي) وعن (الحوار الحضاري)، وكلاهما مغفل لعنصر (الحداثة) التي تعطيها الحضارة الأحدث ولعنصر (التجربة) التي تعطيها الحضارة الأقدم.

وإذا كان التاريخ في مسيرته الحضارية يترك على جانبي المعارك والصراعات والإيجابيات والسلبيات بعض القيم والمعطيات التي يجب أن تستقر في وعي المجموع البشري، وترقى إلى مستوى (الثوابت) فإن الرفض الكامل أو القبول الكامل يضيع على البشرية هذه الحسيلة التي تدفع البشرية ثمنها غالياً... ولا يجوز أن تهدر بحال من

## الأحوال!!

وبالتالى فإن هذين الطرفين اللذين واجها الحضارة الحديثة لم يمثلا الرد الحضارى الموضوعى... ولقد كان (حتمًا) - ما دام الصراع بين حضارتين متكافئتين - أن يتداعى هذان الطرفان الإسلاميان، وأن يظهر طرف جديد يحاول أن يقوم بواجب الحوار الحضارى مع الحضارة الحديثة... وإن صمود الإسلام حتى اليوم، ومع هيمنة الحضارة الأوروبية منذ أربعة قرون لهو أقوى دليل على أن الحضارة الإسلامية حضارة قوية البناء، وأنها - على الرغم من إخفاق أكثر أبنائها فى مواجهة الحضارة الأوروبية القوية - ما زالت قادرة على الحوار، بل إنها بدأت تأخذ - مع هذا الوضع المتردى - زمام التأثير والمبادرة الفكرية والقدرة على الإقناع...

\* \* \*

إننا لانحاول فى هذه التوطئة أن نستوعب فصول قصة اللقاء بين الفكر الإسلامى والحضارة الحديثة منذ ظهرت أوربا على مسرح التاريخ، تحاول اكتساح الحضارات البشرية وتسعى إلى فرض صياغتها للحياة وفلسفتها نحو الغيب والكون ورؤيتها الفنية والجمالية بل ولغاتها وآدابها على البشرية كلها.

وإنما نحاول - فقط - أن نمهد الطريق لموضوعنا الأساسى وهو: (موقف الفكر الإسلامى المعاصر من الحضارة الحديثة) محددين إطار هذا الموضوع بنطاق العناصر التى تمليها طبيعة الموضوع، وهى:

١ - الفكر الإسلامى - فهو الطرف الأساسى الذى يراد التعرف على (موقفه).. وهذا الفكر الإسلامى مكون - كما نرى - من

مصطلحين : ( الفكر ) - أى محصول الاجتهاد البشرى الاحتمالى وليس الوحي اليقينى - (والإسلامى) أى الذى تتكامل له الأساسيات التى توثق نسبه الإسلامى... وبالتالي فهو ليس فكر المستشرقين، حتى وإن اتصل بالإسلام، وهو ليس فكر الخارجيين عن الإسلام (المرتدين)<sup>(١)</sup> حتى ولو تشبثوا بمصطلح الإسلام وأطلقوه على أنفسهم، فالانتماء العقدى لابد وأن يتحرك فى الدائرة الأساسية المعتمدة.

٢ - (المعاصر)... والمعاصرة (وهى العنصر الثانى) تحدد النطاق الزمنى للموضوع فى القرن الرابع عشر الهجرى (وما يوازيه فى التاريخ الميلادى تقريبا)، وهو تحديد يعطينا من النظر فى مسيرة القرون الثلاثة التى سبقت ذلك، وهى قرون الالتحام المبكر الذى بدأ منذ القرن السادس عشر الميلادى .

٣ - الحضارة الحديثة (وهى العنصر الثالث)... ويقصد بها الحضارة الغربية بجناحيها الغربى الرأسمالى (الأوروبى الأمريكى) والشرقى الشيوعى أو المادى اللادينى بعد السقوط الرسمى لشيوعيته وهو ما كان يسمى بالاتحاد السوفيتى!!.

وفى هذا النطاق نعالج الموضوع محاولين أن نوجز كل الإيجاز؛ لأن التفاصيل ستبعدنا عن نطاق معرفة (الموقف) وتجربنا إلى نطاق (التاريخ المجرد) وهو ما لا يتناغم مع قضية هذا البحث.

(١) من أمثال محمد أركون، وحسين أحمد أمين، وسعيد عشاوى، وغيرهم من الذين يتصدرون الآن لصياغة إسلام لاهوتى كنسى لاوجود له فى واقع الحياة - أى بإيجاز - يمزقون من القرآن أكثر من نصفه!!

## مناطق الاشتباك :

إذا نظرنا إلى خريطة العالم الإسلامى إبان القرن الرابع عشر الهجرى، فإننا سنجد معظم هذا العالم قد سقط أمام ضربات الحضارة الغربية من النواحي السياسية والعسكرية على الأقل. فقد ضم الجزء الأكبر من شمال أفريقيا إلى فرنسا كما ضمت سوريا ولبنان، وراحت إيطاليا تنظر بعين الطمع إلى ليبيا، وتمهد لنفسها فيها بكل الطرق، وسيطرت بريطانيا على أكثر البلاد الإسلامية، وعلى رأسها مصر والسودان والهند الكبرى (باكستان وبنجلاديش) والعراق وإيران وفلسطين وشرق الأردن، وخضعت أندونيسيا لهولندا، وأخضعت روسيا ما وراء القوقاز والخانيات الأوزبكية العظيمة (بخارى وسمرقند وخيوة وخواقند) بالإضافة إلى منغوليا وأذربيجان وطشقند والتركستان، فكان خريطة العالم الإسلامى -- كما نرى -- قد أصبحت تحت قبضة الحضارة الحديثة، ولم يفلت منها إلا جزيرة العرب -- بدرجة ما -- وإلا المغرب الأقصى وما وراءه -- بدرجة قلقة أيضاً... فضلاً عن تركيا التى كانت نفسها تترنح آيلة للسقوط.

هذا من الناحية السياسية والعسكرية... أما من الناحية العقديّة والفكرية فنستطيع القول: إن أوربا كانت تفوض الكنيسة وتدعمها فى الامتداد إلى بلدان العالم الإسلامى.... فبعثات التنصير كانت تسبق الجيوش ممهدة، أو تلحق بها موطدة. وكانت أساليب التغريب و«العلمنة» التى يحملها الأوربيون معهم إلى كل مكان وصلوا إليه تمتد إلى مناهج التعليم وأساليب التشقيف وإلى الاقتصاد والحياة الاجتماعية والثقافية.

ومن الغريب أن العالم الإسلامى أمام هذه الهجمة لم يكن يملك أدنى أدوات المقاومة، اللهم إلا القوة الكامنة فى دينه وإلا الماضى العظيم



المنساب فى كيانہ والذى يمنحه وقود الاستعلاء على الأزمة الخائقة المحيطة به، وإن لم يكن يحسن الإفادة منه أو تمثله فى حاضره الأسيف.

لقد كانت حالة هذا العالم أسوأ حالة، يصورها لنا الكاتب الأمريكى المعروف (ستودارد) فيقول : (كان العالم الإسلامى قد بلغ من التضعع أعظم مبلغ، ومن التدنى والانحطاط أعظم دركه، فاربذ جوه وطبقت الظلمة كل صقع من أصقاعه ورجا من أرجائه، انتشر فيه فساد الأخلاق والآداب، وتلاشى ما كان باقيا من آثار التهذيب العربى، واستغرقت الأمم الإسلامىة فى اتباع الأهواء والشهوات، وماتت الفضيلة فى الناس، وساد الجهل وانطفأت قبسات العلم الضئيلة، وانقلبت الحكومات الإسلامىة إلى مطايا استبداد وفوضى واغتيال.

وأما الدين فقد غشيته غاشية سوداء، فألبست الوجدانية التى علمها صاحب الرسالة الناس سجفا من الخرافات وقشور الصوفية، وخلت المساجد من أرباب الصلوات، وكثر عدد الأدعياء الجهلاء وطوائف الفقراء والمساكين، يخرجون من مكان إلى مكان يحملون فى أعناقهم التمام والتعاويد والسبحات) (١)

وهكذا لم تكن لدى العالم الإسلامى أسلحة سياسية ولا عسكرية ولا فكرية ولا عقديّة... وكان عليه إما أن يستسلم فيسقط فى حضيض الهزيمة الحضارية المدمرة، وإما أن تظهر فيه أقلية مبدعة وصفوة مجاهدة تستعين بالإسلام فى صد هذه الغارة التى امتدت إلى ساحة العالم الإسلامى كله، وعليها أن تكشف عن جوهر الحضارة الإسلامىة الصحيح أمام التحديات الكبيرة.

(١) حاضر العالم الإسلامى-ج١- ص ٢٥٩ (لوثروب ستودارد).

## المنهجان المرفوضان وتأثيرهما

ذكرنا أننا نرفض المنهجين اللذين وقفنا من الحضارة الأوروبية موقفاً مبدئياً صارماً فرفضوها بالجملة وطعنوا فى كل ما قدمته.. أو قبلوها بالجملة وزينوا كل سلبياتها ودافعوا عنها... وحولوا مبادئها القاتلة محاسن فاضلة.

والمنهجان معاً أضرا بالأمة الإسلامية غاية الضرر؛ فقد كان منهج الرفض الكامل للحضارة الأوروبية المسئول الأكبر عن تخلف المؤسسات الإسلامية التعليمية منها والاقتصادية والإعلامية، بل وكان سبباً فى سقوط الخلافة العثمانية، وجمود كثير من مرافق الحياة الإسلامية على امتداد العالم الإسلامى كله، وليس ما عرف فى تركيا أو مصر أو الجزيرة العربية إلا نماذج لهذا الموقف الذى وجد له متعصبون فى معظم البلاد الإسلامية... ولقد كانت تركيا هى أكثر الدول الإسلامية مواجهة للخطر الأوروبى، وكان عليها أن تغير نفسها مواجهة للخطر الزاحف عليها، واستيعاباً لنقاط قوة الخصم وللمستحدثات الحضارية الضرورية للمقاومة ( ولكن زعماء الأتراك الدينيين الذين كانوا صفراً من روح التفقه والاجتهاد للتعاليم الإسلامية الحقيقية - أغمضوا عيونهم عن كل ذلك التغيير والانقلاب، وأكروهوا الأمة التركية على أن لا تخرج - ولو خطوة - من حدود البيئة التى سادتهم منذ سبعمائة عام. وتبع السلطان سليم السلطان محمود فى الحكم، فحاول الإصلاح، ولكن العلماء والمشايخ خالفوه مرة أخرى، وبتذليل كثير من العوائق والصعوبات تمكن السلطان فى سنة ١٨٢٦م من ترويج التنظيم العسكرى الجديد فى تركيا. ولكن العلماء لم يزالوا ينادون بأن كل تلك الإصلاحات بدعة سيئة يراد بها تخريب الإسلام، وأن السلطان قد مرق من الدين، وأن التطوع فى الجندية من هذا الطراز الحديث مفسدة

لإيمان المسلمين.

وكان هذا هو الزمان الذي أحس فيه أهل الفكر من الأتراك بتخلفهم وهوانهم القومي (١).

لقد كان من جمود علماء الأتراك (حتى في القرن العشرين الميلادي) وضيق تفكيرهم ونزوعهم إلى القديم وإبائهم الأكيد لمسايرة الزمن ما عهد فيهم أيام السلطان سليم، فكانوا يقولون حتى الآن إن باب الاجتهاد قد انغلق بعد القرن الرابع، والحال أن باب الإلحاد الصريح كاد ينفتح أمام أعينهم، وكانوا لا يزالون يدرسون ويدرسون في الفلسفة والكلام تلك الكتب التي كان الزمان قد خلفها من ورائه منذ خمسمائة سنة، وتقدم إلى الأمام، وكانوا يلقون على الناس مواعظهم، من ذلك التفسير القرآني وتلك الأحاديث الضعيفة التي لا شك في أن الناس كانوا يستمعون إليها بشوق قبل مائة سنة، ولكنها جاءت تنفر في هذا الزمان العقول الجديدة لامن أولئك المفسرين والمحدثين فحسب بل من القرآن الكريم والحديث النبوي نفسه، ثم إنهم كانوا مصرين على أن تنفذ بين الأمة التركية تلك القوانين الفقهية التي هي مكتوبة في مجموعات الشامي وكنز الدقائق، وإن كانت نتيجة هذا الإصرار أن يتملص الأتراك حتى من اتباع القوانين الأصولية المنصوص عليها في القرآن (والسنة). (٢)

وهكذا كان تأثير المنهج الأول (الرافض) مدمراً، ولعله في تصوري - وكما أوضح العلامة أبو الأعلى المودودي - المسئول الأول عن سقوط الخلافة العثمانية، إذ هو السبب الداخلي الذي يسبق في المنظور الحضاري العوامل الخارجية.

(١) نحن والحضارة الغربية لأبي الأعلى المودودي ص ١١٢ طبع بيروت.

(٢) المرجع السابق. ص ١١٧



أما أصحاب المنهج الثانى ، فهم هؤلاء الذين لم تتوافر فيهم أية حصانة ذاتية أو أصالة إسلامية، بل كانوا أشبه بالمراهقين الذين تخذعهم الظواهر ولا يحاولون التعرف على سنن الله الكونية فى رقى الأمم، ولا التعرف على الأساليب الصحيحة التى تواجه بها التحديات الحضارية... ولقد بلغ من سخافة عقول بعضهم أن دعوا الأمة صراحة إلى التبعية الفكرية والروحية الكاملة للحضارة الحديثة...

ولقد صور أستاذنا الفاضل الشيخ محمد الغزالى هذا الوضع (١) حين نقل إلينا ما كتبه أحد هؤلاء ويدعى ( ماجد فخري )... يقول الشيخ الغزالى :

« لقد كتب السيد ماجد فخري مندداً بالشيخين محمد عبده ورشيد رضا، ومفنداً رأيهما فى صلاحية النظام الإسلامى لعالمنا الحاضر آخذاً على الإسلام كثيراً من نظمه الاجتماعية والاقتصادية... وليس هذا يعنيننا بقدر ما يعنيننا ماذا يريد الكاتب بعد تحطيمه للإسلام؟! إنه يقول بالحرف الواحد (والكلام هنا لـ ماجد فخري) : إنه يخيل إلينا - نحن الشرقيين - أن الاستقلال عن الغرب سياسياً يعنى الاستقلال عنه فكراً وحضارياً وهذا - أيها السادة - وهم فاضح، فالدول الشيوعية نفسها كروسيا والصين ودول شرق أوربا ما زالت كلها عالة على الغرب فى ميدان العلم والفلسفة. ألم يكن حلم بانى روسيا الحديثة بطرس الأكبر نفسه «تغريب» روسيا فى القرن السابع عشر».

ولم تكن آثار هذا المنهج بأقل سوءاً من المنهج الأول، فإذا كان الأول قد سد الطريق أمام (الإيجابيات) التى يمكن أخذها من الحضارة الحديثة، فإن الثانى قد جلب إلينا (السلبيات) فكأن المنهجين تعاونوا

---

(١) انظر كتابه الحافل بتحليل هذا المنهج التغريبى (ظلام من الغرب)



على إصابتنا بعمى الألوان و (بالخلط) فى علاقتنا بالحضارة الحديثة، فاتجه بعضنا إلى رفض الصالح، وذهب آخرون إلى جلب الفاسد... وهذا منهج حضارى غريب سبى العاقبة، قضى على كثير من الشعوب فى التاريخ، ولولا الأصالة الذاتية للإسلام، وموقف المفكرين الواعين لكان نصيب العالم الإسلامى كله المسخ والتشويه الدائمين.

### مرحلة الثقة والنضج :-

مع وضوح الأثر العميق السيئ للمنهجين السابقين، ومع تجاوز فترة (المفاجأة) التى ارتبك فى التعامل معها كثير من المسلمين الذين سقطوا فى التبعية الفكرية للحضارة الأوروبية غربىها الرأسمالى أو شرقىها الشيوعى، والذين انبهروا بمنجزاتها العلمية، دون أن يدركوا أن (المنجزات العلمية) ليست إلا نتيجة، وأن الحضارة بناء فكرى داخلى ومنهج للتعامل مع الحياة والكون والإنسان وخالق الكون، ودون أن يدركوا أن الآلات والمنجزات العلمية قسيم مشترك بين الناس يحتاج لشروط موضوعية خاصة، والأهم فى الحضارة - لاستمرارها وازدهارها - ليس هذا الجانب الآلى المشترك والذي يمكن أن ينبغ فيه الرأسمالى والشيوعى والوثنى الهندوكى واليابانى البوذى والمسلم على السواء.. وإنما الأهم (الأسس الفكرية والأخلاقية) التى تقوم عليها الحضارة .

أقول.. مع تجاوز فترة (المفاجأة) هذه، وبداية اعتدال الميزان ووضوح البصيرة، بدأت تظهر مرحلة جديدة يمكن تسميتها بمرحلة الثقة والنضج... وهذه المرحلة قد واجهت الحضارة الحديثة بموقفين جديدين يكمل أحدهما الآخر...

فأما أولهما: فهو تجاوز مرحلة (الدفاع) إلى مرحلة (نقد

الحضارة الحديثة) فى أصولها الفكرية والأخلاقية، ليس بقصد التبغيض فيها لرفضها، ولكن لبعث الثقة فى الإنسان المسلم وحضارته من جهة، ولتنوعيته حضارياً - من جهة أخرى - ليدرك الفرق بين مصطلحين مهمين مختلفين كل الاختلاف، وهما مصطلح (التغريب) و(التحديث) فلا علاقة بينهما البتة، فالأول يعنى أن غايتنا هى أن نكون أشباه الغربيين حتى فى سلبياتهم، والثانى يعنى أن (التحديث) - أى امتلاك أحدث وسائل العصر - هو الهدف سواء جاء التحديث من أوروبا أم من اليابان... والأول ذوبان وتبعية، والثانى معاناة وصراع حضارى مع الخصم مع الحفاظ على الذات... وإلا فلو ذابت (الذات) فلا صراع، لأن (المقلد) يمشى على خطى (المقلد) ولا يصارعه!!

### وأما ثانيهما :

فهو موقف (البناء الذاتى) لحضارة (إسلامية حديثة) تستخدم كل معطيات العصر ووسائله وفنياته وكل ما يبيحه الشرع، وتحافظ فى الوقت نفسه على كل الأصول والقواعد الإسلامية مفرقة بوضوح بين ما هو حرام... وما هو حلال، متمسكة بدينها بوعى وإصرار وإخلاص، مؤمنة بصلاحيته الكاملة لقيادة السفينة البشرية الموشكة على الغرق، سواء فى : (العقيدة الصحيحة) أو فى (الاقتصاد)، أو فى (السياسة) أو فى (الإعلام) أو فى (الفن والأدب) أو فى (علوم النفس والاجتماع والتربية)...

وفى كل ذلك بدأت تظهر منهجها الإسلامى، وتبنى المؤسسات، وتتقدم إلى كل ناحية من نواحي المعرفة، فتوصل الاقتصاد - بمئات الدراسات - وفق المنهج الإسلامى، بل وتبنى - ولله الحمد - مؤسسات اقتصادية إسلامية وتوصل (الأدب) (بالإسلام) وتقيم مؤتمرات للأدب الإسلامى، وتنشئ أقساماً للإعلام الإسلامى، وتستحدث

البدائل الإسلامية فى الفنون المختلفة، وتفتح باب الاجتهاد الذى أغلقته بعض العقول الجامدة (والا فهو مفتوح ولم يغلق) وتقدم نظريات فى التربية، وتنشئ المدارس، وتنشئ صحفاً إسلامية راقية عصرية إلى آخره.

ومهما تكن هناك من أخطاء، فإن مواصلة التطبيق كفيلة - بإذن الله - بعلاج الأخطاء... فالاختلاف بين الفكر والتطبيق مقبول فى حدود معقولة، ومع المثابرة والإصرار على محاولة الوصول إلى الأهداف الواضحة المحددة.

وفى الصفحات التالية نلقى بعض الضوء على هاتين المرحلتين الممثلتين لمرحلة (الثقة والنضج) ثم نخلص منهما - بإذن الله - إلى تقديم تصورنا لما نراه كفيلاً بإقامة حضارة إسلامية معاصرة.

### نقد الحضارة الحديثة :

كان لابد من إقامة هذا الجدار الواقى بيننا وبين الجيران.. فما داموا مصرين على فرض الذوبان والتبعية علينا، رافضين لكل حق وخير عندنا، مشوهين لكل أفكارنا وقيمنا، بين أبنائهم وأبنائنا - ما دام الأمر كذلك - ولا سبيل للالتقاء - فلا سبيل إلى ترك الحدود مكشوفة، ولا إلى التغاضى عن روائعهم الكريمة، وأطماعهم، ونزواتهم القاتلة....

لقد حاولنا أن نعرفهم بأنفسنا فرفضونا، وتقولوا على مقدساتنا الواضحة وافترروا عليها، ولم يتركوا وسيلة لإبعادنا عن ديننا وحضارتنا إلا اتبعوها، وعاملونا بكل عنف وصراف، ولم يسمحوا لأنفسهم - حتى وهم يستعمروننا ويتحكمون فىنا ويعيشون بيننا - بأية موضوعية أو إنسانية، ولا يزالون - حتى اللحظة - سائرين بإصرار على هذا الطريق



لقد كانت فرصة احتلالهم لنا فى القرنين الأخيرين - على الأقل - موجبة لهذا التعرف على حضارتنا على نحو ما فعل التتار قبلهم، فكان الواجب الأخلاقى يملى عليهم: «أن يقيموا المراكز العلمية لدراسة القرآن الكريم والسيرة النبوية - على صاحبها الصلاة والسلام - دراسة مجردة مخلصه، وأن يوفرنا وسائل الدراسة العلمية لهما بأريحية وسخاء ويشجعوا الدراسة الموضوعية التى تتحرر من رواسب الحروب الصليبية الملموسة وغير الملموسة، والأهداف والمصالح السياسية والادعائية، وتتحرر من مركب الاستعلاء (superiority complex) الذى يكون فى غالب الأحيان نتيجة السيطرة السياسية والحكومية القومية، والذى يحول بين الدارسين وبين التأملات الحيادية والدراسات المنصفة لثروة الشعوب ولبلدان المغزوة العلمية ومعتقداتها ومسلماتها والتقدير الصحيح لقيمتها وأهميتها» (١)

لكن الواقع أنه لم يكن فى هذه المدة بيننا وبينهم إلا اتجاه واحد (one way traffic) وهو اتجاه الإخضاع والغرور والتشويه والرفض الذى تحدثنا عنه سابقاً.

ومن هنا فلم يكن أمامنا من خيار إلا أن نحمى أنفسنا، وأن نتدثر بشخصيتنا وحضارتنا، وأن نكشف لخصومنا الحضاريين نواحي الخلل عندهم، ليس من أجلهم فقط، بل من أجل أبنائنا المهددين بضمغوطهم.

يقول شاعر الإسلام محمد إقبال فى قصيدته (٢) (رسالة إلى العرب): «إعلموا أيها السادة أن من ثار على شخصيته وكرامته وفقد الثقة بنفسه مات ومحق من الوجود، ومن فر من معسكره وانحاز إلى صفوف الأعداء، وتطفل على مائدتهم عوقب بالهوان والشقاء، والطرد (١) العلامة أبو الحسن الندوى : الإسلام والغرب ص ١٨ طبع ندوة العلماء لكنؤ الهند.  
(٢) ديوان : رسالة الخلود



والجلاء، إلا أنه لم يجن عدو على عدو مثل ما جنيتم أنتم على أنفسكم ولم يسن أحد إلى أحد إساءتكم إلى أمتكم، إنكم آذيتم روح رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعصبيتكم، فهي متأللة متوجهة شاكية مستغيثة».

«الشاعر (يقصد نفسه) عارف بمكائد الإفرنج، وما لديهم من سهام مسمومة، وحبائل منصوبة، والشاعر شديد المعرفة بهم، فقد عاش فيهم ودرسهم وخبرهم، فهو يتألم إذ يرى في الأمة العربية من يحسن الظن بهم، ويعتمد عليهم في بناء مسرح الحياة، وفضى المشكلات، فيرسل صيخته وينذرهم من المصير المظلم المؤلم»..

«مهلا أيها الغافلون !! إياكم والركون إلى الإفرنج والاعتماد عليهم، ارفعوا رؤوسكم، وانظروا إلى الفتن الكامنة في مطاوي ثيابهم. ألا إنه لا حيلة لكم ولا سلجأ إلا أن تطردوهم عن منهلكم، وتذودوهم عن حوضكم»..

وفي مكان آخر خلال مقطع من ديوانه العظيم (رسالة الخلود) يخاطب الشاعر إقبال (الحضارة الأوربية) فيكشف سواتها (وهو الخبير بها) ويطلع أصحاب البصيرة والبصر على حقيقتها ويحذرهم منها... يقول : أيتها الحسناء الماكرة، أيتها السارقة (يا من تعرفين القمح ثم تبيعينه شعيرا، بسبك يبيع الشيخ والبرسه، وطنه). (العقل والدين ذليلان من مظاهر كفر، والحب العف ذليل من أوجه دعارتك)، لقد أصبحت علامتان المميزتان للبشرية - وهما العقل والدين - ذيلتين منكسرتين بفعل أعمالك الشيطانية، لقد جعلت الإنسان بمنأى عن النفحات الطاهرة التي تكمن في الحب العفيف «لقد اخترت سحبة الماء والطين، لقد اختلطت العباد من أمام الله» ألا تدرين أنك جعلت الأنظار تنصرف عن الروح وعن الأخلاق السامية وجعلت هدف

الحياة اللذة الجسمانية وحدها. ) .

وعلى خطا شاعرنا العظيم (إقبال) تتتابع كتابات المفكرين المسلمين الذين اهتموا بتقويم هذه الحضارة، ونقدها موضوعياً، سواء فى فكرها وفلسفتها التى قامت عليها أم فى نتائج أفكارها القاتلة. يقول العلامة أبو الأعلى المودودى رحمه الله : ( إن سنة الله نراها تتكرر اليوم أمامنا، فوبال الأعمال السيئة الذى ذاقتة الأمم السالفة قد أحاق اليوم بالأمم الغربية، وذلك أنه قد أذرت هذه الأمم بكل وجه ممكن للإنذار، فأفات الحرب العالمية ومشكلات الاقتصاد وازدياد التعطل وانتشار الأمراض الفتاكة وتبدد النظام العائلى، كل أولئك آيات بينات، لو تأملوها لعلموا أن كل ذلك ثمرة ظلمهم وعتوهم واتباعهم للشهوات وإعراضهم عن الحق. ولكنهم لا يجدون فى هذه الآيات ما يعتبرون به، فلا يزالون يميلون عن الحق، وإذا هم تصدوا لمعالجة ما أسابهم فلا تصل أبصارهم إلى العلة الرئيسية للمرض، وإنما هم ينظرون إلى ظواهر المرض يستفرغون جهودهم لمعالجتها، وبهذا الخطأ البين فى العلاج لايزال داؤهم يستفحل كلما عولج، ومما تدل عليه الأحوال الآن أن مرحلة الإنذار وإتمام الحجة قد كادت تنتهى، وقد اقتربت ساعة القضاء (١) .

لقد عانى الفكر الإسلامى من ضغط الحضارة الأوربية الكثير، فهى حضارة مغرورة لا تصغي أذناً لأى حوار، وهى تنطلق من ثوابت لديها تجاه الحضارة الإسلامية، ولا تحاول أن تغير من هذه الثوابت، وهى عامدة إلى تزييف الحقائق الإسلامية، وإلى الحديث عن المسلمين ماضياً وحاضراً بحقد صليبي موروث، وهى تقف مع كل ملل الأرض حتى

(١) نحن والحضارة الغربية لأى الأعلى المودودى ص ٧٦.٧٧

الوثنية والإلحادية منها ضد المسلمين....

وكان لابد لكل هذا أن يترك انعكاسه على الفكر الإسلامى... ومن هنا سنجد سيلا من الكتب الإسلامية يحذو حذو القلة (الغربية) العاقلة التى تقوم بنقد الحضارة الأوروبية من داخلها وعلى رأسها (ازوالد شنجلر) مؤلف (أفول الغرب) و (الكسيس كاريل) صاحب (إنسانية الإنسان) و (أريك فروم) صاحب (الإنسان ذلك المجهول)، و (رينيه دوبو) صاحب (ثورة الأمل) وغيرهم... بالإضافة إلى (القلة النادرة) من كبار مثقفى الغرب الذين انتصروا على الحضارة الغربية فى نفوسهم وعقولهم، فانسلخوا انسلخا كاملا وأعلنوا إسلامهم من أمثال (ليوبولد فايس) الذى أصبح اسمه بعد الإسلام (محمد أسد) والذى ألف كتابا كان من أهم الشارات الوضيئة فى هذا الطريق بما حواه من عمق فى التعرف على (روح الغرب) وهو كتاب (الإسلام على مفترق الطريق) ومثل (المهدية مريم) صاحبة كتاب (الإسلام بين النظرية والتطبيق) ومثل (روجيه جارودى) وغيرهم... فلهؤلاء وأولئك فضل تعميق هذا المنحنى فى الفكر الإسلامى، وظهور مئات الدراسات فى هذا الطريق، معظمها جاد موضوعى، وبعضها قد تشوبه شائبة العاطفة الجموح.

ولعل من أفضل الدراسات، فى الاتجاه الأول : كتابات المفكرين الإسلاميين الكبار، وعلى رأسهم العلامة محمد إقبال والشيخ عبد الحميد ابن باديس، والعلامة مالك بن نبي، والعلامة أبو الأعلى المودودى والعلامة أبو الحسن الندوى والشهيدان حسن البنا وسيد قطب وهؤلاء هم الذين تجاوزوا مرحلة (المفاجأة) التى تلقاها جيل المصلحين الرواد من أمثال جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ومحمد فريد وجدى وغيرهم.. فإن هذا الجيل الثانى -فى الحق- أكثر وعيا وقدرة، وجمع أقطابه فى اتزان وشمول... بين خير ما عند (جيل المفاجأة) وبين ما



استطاعوا بكفائتهم واحتكاكهم بالحضارة الغربية - أن يحصلوه من أعماق منهجية ونظرات ثاقبة... فنقدوا الحضارة الغربية بمنهجها وكشفوا عورتها وفسادها، وعمقوا الرؤية الإسلامية الحضارية أيما تعميق.

أما الاتجاه العاطفى فى نقد الحضارة الغربية، فهو اتجاه أقرب إلى الرفض، وهو لا يكاد يرى - إلا قليلا - فى الحضارة الأوروبية بعض الإيجابيات، وعلى كل حال، وعلى الرغم من ماخذنا هذا عليه فهو قد قام بدور فى تعميق هذه المرحلة، وساعد فى إقامة هذا الجدار القوى الذى كان يجب أن يقوم... ولو على الرغم منا - بيننا وبين هذه الحضارة التى تريد أن تجهز علينا وعلى ديننا، وتقضى على كل خصائصنا ومقوماتنا.

-- وحسبنا أن نقتبس هذا النص التالى للدلالة على هذا الاتجاه...  
-- يقول مؤلفو كتاب (الإسلام وحضارة المستقبل) (١) :

«حضارة أوربا نسيج من القوة والطغيان والأثرة وحب الذات والأنانية، وقد قامت على أساس فلسفتها الاستعمارية والتفرقة العنصرية... إنها حضارة اللذة والمتعة وعبادة المرأة والمال... وعلمها الذى تسيطر تحته أن الجنس الأوروبى هو سيد العالم ومز عداة عبيد أو كالعبيد. وإذا كانت أوربا قد حررت الرقيق كلاما، فإنه ما زال موجودا فعلا. الرقيق موجود فى المرأة التى تباع شعائر أوربا شراءها بالمال، وموجود فى البلاد المستعمرة التى تعيش فى منزلة أحط من منزلة

(١) د . محمد عبد المدم حجاجى، السيدة (أمينة الصاوى)، د. عبد  
العرير شرف نشر مكتبة مصر ص ٦.



العبيد فى سالف الأزمان وكل خيرات هذه الشعوب هى لأوربا، ولشعوب البلاد المستعمرة الفقر والمرض والجهل والقتل والموت البطئ الذى لا يتصور أقسى منه» .

«إن حضارة أوربا حضارة الربا والقمار والمكيا فيلية الشريرة، والإباحية والعلمانية والمادية، واستعباد المرأة باسم تحريرها. حضارة لا مكان لها فى قاموس المثل والقيم الشريفة» .

ومع ما بلغته أوربا من قوة مادية فإنها قد انهارت روحيا وخلقيا وإنسانيا إلى الدرك الأسفل، وحسبك أنها تحرم على الرجل أن يتزوج إلا بواحدة، ومع ذلك تبيح له أن يعيش مع ألف عشيقة وبائعة لجسدها، ولا تعد ذلك منكرا دائما، إنما الإثم فى نظرها القاصر هو ما شرعه الإسلام للرجل من حرية الزواج بأربع بشرط أن يعدل بينهن : «وإن خفتن ألا تعدلوا فواحدة» .

وأوربا فى ظلال حضارتها الماجنة تعيش فى انهيار دائم، ورعب ملوئل، وفزع مستمر (١) ...» ..

وثمة مقالات وكتب كثيرة داخلية فى نطاق الفكر الإسلامى نقدت الحضارة الغربية بهذا المنهج... وهو موقف فكرى مهما يمكن أن يؤخذ عليه - قد قام بنصيبه - كما ألمعنا - فى درء خطر الذوبان والغرق فى بحر الحضارة الغربية المتلاطم الأمواج.

### موقف البناء الذاتى ورفض التلفيق :

من خلال التجارب الحضارية المتعددة يعلمنا التاريخ أن أخطر ما تواجهه أمة هو أن تنهزم فى فكرها ومنهج حياتها أمام خصومها الحضاريين.

(١) المكان السابق:

وعشرات من الأمم هزمت سياسياً وعسكرياً ثم نهضت من جديد،  
ولربما أثرت بعضها فكرياً وحضارياً في المنتصرين عليها في ميادين  
السياسة والحرب والاقتصاد.. فالهزيمة الحقة هي تلك التي يستسلم فيها  
العقل وينسحق الوجدان، وتتجه المشاعر - في خضوع ذليل - إلى  
منهج الأعداء العقدي والفكري والسلوكي.

والتقليد... في مجال الصراع الفكري والحضاري له حدود لا يجوز  
أن يتجاوزها.. إنه يشبه جرثومة مقاومة مقاومة الطاعون التي لا بد أن تعطى  
بنسبة مئوية محددة، وبشروط معينة، وإلا تحول الدواء إلى داء  
قاتل...

وفي مرحلة من المراحل - خلال فترتنا المعاصرة من القرن الرابع  
عشر الهجري - بدا وكأن ميزان التعامل بين الفكر الإسلامي والحضارة  
الحديثة يميل إلى الاختلال يميناً ويساراً.. فكم من المفكرين اختل  
جهاز القيادة الفكرية في أيديهم..

فاتجه بعضهم إلى محاولة تلفيقية يسارية، ونادوا بأهمية أن يكون  
هناك (يسار إسلامي)، ووضعوا لتيارهم هذا خصائص أسقطوها عليه  
إسقاطاً... وابتسروها من الحقائق الإسلامية المتكاملة.

واتجه بعضهم إلى (الليبرالية) - متجاوزين عن كثير من الفروق  
بين (الديمقراطية) - كفلسفة غربية ذات جذور وخصائص مستقلة  
- وبين (الشورى) الإسلامية، فأغفلوا الثانية، وركزوا على الأولى،  
وتحدثوا عنها وكأنها الطريق الوحيد أمام المسلمين.

والحق أن الاتجاه إلى إسقاط فلسفات معاصرة (مسيطرة) على  
الفكر الإسلامي ومنهج الإسلام، سواء كانت يسارية اشتراكية، أم يمينية  
ديمقراطية رأسمالية... هذا الاتجاه كله اتجاه (تلفيقي) ومن شأنه

بعثرة خطوات المسلمين، وتمزيق رؤاهم، وإبعادهم عن منهجهم الحضارى الصحيح.

والجدير بالذكر أننا لن نجد قيمة من القيم الإيجابية فى كلا الاتجاهين إلا وهى موجودة ضمن حلقات النظام الإسلامى... لكن بدرجة محددة وفى سياق معين وضمن منظومة كاملة من التشريعات والأخلاقيات... فالتكافل الاجتماعى والاقتصادى وإنصاف الكادحين وموازرتهم جزء لا يتجزأ من الإسلام، وتحقيق الحرية الإنسانية والمساواة أمام الشريعة بين كل الناس وهيمنة القوانين على كل الناس، وتحقيق العدل... هذه أيضاً قيم إسلامية أساسية فى النظام الإسلامى... فما معنى (بتر) بعض القيم و (التركيز) عليها على حساب قيم أخرى؟ وما معنى إبراز هذه القيم (المنتقاة) وكأنها قيم غير إسلامية، أو على الأقل وكأنها قيم لم تتألق إلا عندما خرجت من تحت معطف اليمين أو اليسار!!؟

وعلى أية حال... فإن هذا التيار المائل يميناً أو يساراً لم يستطع أن يصمد طويلاً أمام التيار المتعامل مع الحضارة الحديثة من منطلق موقف حضارى راسخ الجذور قوى البناء، قادر على الأخذ بنسب حضارية متوازنة محددة على النحو الذى تعرضه سنن الله الكونية فى التفاعل بين الحضارات.

إن التيار الذى سيطر - ولله الحمد - هو هذا التيار الوثيق الصلة بالتكليف القرآنى للحضارة، وهو تكليف يرفض - ضمناً - الصياغة الحديثة للحضارة، تلك التى تتنكر لله ولا تؤمن إلا بالمادة والمحسوس.

وعلى الرغم من أنه لا يمكن القفز الأعمى من فوق المنجزات العلمية الحديثة، فهي وسائل ضرورية لابد من استيعابها وصولاً إلى حتمية (التحديث) فإن هذا التحديث لا علاقة له (بالتغريب) فليس (التغريب) هو الطريق الوحيد للتحديث... بل التحديث الإسلامى الذاتى المطلوب - فى ظل المنهج الفكرى الرشيد - هو الذى يأخذ بكل المعطيات الإيجابية فى الحضارة الحديثة، ولا يضحى - فى الوقت نفسه - بالمنهج القرآنى فى صياغة الحضارة، ذلك المنهج الذى لا يتم إلا إذا تمكن المسلم من أن يقرأ القرآن كأنما أنزل عليه، وإلا إذا أخضع المسلم نفسه للقرآن، ولم يسقط على الصياغة القرآنية من واقع المريض أو أفكاره الملتفة.

إن هذا المنهج القرآنى فى التفاعل مع الحضارة الحديثة يدفع (أولاً) إلى بعث الرغبة الكامنة، والكافية لدى المسلمين فى السعى إلى استعادة حضارة الإسلام، ويدفع (ثانياً) إلى القضاء على التجزؤ وأسبابه، ذلك لأن الجهد الحضارى إنما هو جهد جماعى لا يثمر إلا إذا كان كذلك، ومحال أن يتحقق العمل الجماعى إلا بعد انصهار الجماعة فى وحدة حقيقية مترابطة، يقيها من التشاكس الذى من شأنه أن يقضى على العمل ذاته (١).

ولئن كانت عوامل التجزؤ عديدة ورهيبة... فإن هذه العوامل لا تتسلل إلى الأمة إلا حين تعاني من فراغ فكرى، وفقر إلى مجموعة المبادئ والقيم التى تغنيها بدراية سليمة مطمئنة عن حقيقة كل من الكون والإنسان والحياة. إذ إن من شأن أى جماعة تعاني من مثل هذا الفراغ، أن تغدو هدفاً لمطامع ذوى الدعوات الهدامة، التى تصطنع المبادئ والقيم، لبلوغ أمانيتها وأغراضها.

(١) انظر بتصرف د. محمد سعيد رمضان النوطى : منهج الحضارة الإنسانية فى القرآن ص ١٨٤ دار الفكر.



ولكن إذا أمكن أن يسد هذا الفراغ فى حياتها الفكرية، بقاعدة راسخة من المبادئ والمعتقدات التى تشكل قاسما مشتركا يؤمن به ويخضع له الجميع، فإن هذه القاعدة تصبح فى حياتها كالميزان الذى يحتكم إليه الطرفان، كلما اختلفا على أمر، فلا تدع شيئا من الخلافات وأسبابها تصدع بنيان الأمة أو تزهق وحدتها (١) .

والعطاء (الثالث) فى مجال التعامل مع الحضارة الحديثة الذى يحققه المنهج القرآنى هو «تحقيق الاستقرار النفسى والفكرى» ويتحقق قسط كبير من هذا الاستقرار عن طريق ترسيخ المسلمات القرآنية الأساسية، كما يتحقق قدر كبير منه، فى ظل الوحدة التى من شأنها أن تأتى ثمرة لرسوخ تلك المسلمات من (جانب ثان) .. كما أن رسوخ المسلمات يحول دون الوقوع فى عمى الانبهار الحضارى القاتل...

«لقد نهضت الدول الأوروبية نهضتها، ودخلت عصر «البخار» الذى يشبه فى يومنا هذا عصر «الفضاء» وركبت من حياتها متن الدراية والصناعة ولكننا بدل الأخذ بأسباب النهوض الحقيقى انبهرت أبصارنا وغشيت لمرأى هذه النهضة، وكان من أهم أسباب ذلك الانبهار، انحسار أسباب القوة عن حياتنا، وانشغالنا بحال (الرجل المريض) دفاعا عنه أو تعجيلا به... ثم انتشار عقد وحدتنا بين أيدي المقتسمين والناهبين.

وكان من آثار هذا الانبهار، ذلك السعى التقليدى الأعمى وراء أوربا أملا فى بلوغ نهضة كنهضتها، وتلمس الإصلاح فى السبل ذاتها التى تلمسته منها أوربا... وأخذنا نضع الإسلام فى الميزان ذاته الذى وضعت فيه أوربا دينها... كل ذلك بدافع من مركب النقص الذى حاق بنا، والانبهار الذى غشيت له أبصارنا (٢) ..»

(١) المرجع السابق ص ١٨٤ . ١٨٥

(٢) المرجع السابق ص ١٨٨ . ١٨٩

وفى اتزان فكرى واع يواجه المصلح العلامة (محمد البشير الإبراهيمي) - الرجل الثانى فى جمعية العلماء المسلمين الجزائرية - الحضارة المعاصرة، فيعلى من شأن الحضارة الإسلامية عليها ديناً ولغة وشرعية، ويدعو إلى الحضارة الشرقية التى يسميها «بداوة» (دون موارد لفظية)... يقول المجاهد الجزائرى الكبير : « لقد جاء الإسلام بالحضارة التى لا تبعد، والمدنية المبنية على حكم الله وآداب النبوة، فكان التوحيد أساسها، والفضائل أركانها والتشريع الإلهى العادل سياجها، واللغة العربية الناصعة البيان الواسعة الأفق لسانها. وبذلك كله أصبحت مهيمنة على المدنيات كلها، ووضع الإسلام هذه الحضارة الخالدة على القواعد الثابتة مما ذكرناه» (١).

«ومن العجائب أن هذه الحضارة القائمة الآن تساندت فى تكوينها وفى تلوينها عدة لغات مختلفة الأصول، ولم تستطع أن تقوم بها لغة واحدة على حين أن العربية قامت وحدها ببناء حضارة شامخة البنيان ولم تستعر من اللغات الأخرى إلا قليلاً من المفردات» (٢).

### وأخيراً... يقول الشيخ الإبراهيمي :

إنى لأتمثل شبابنا بارأ (بالبداوة) التى أخرجت من أجداده أبطالاً، مزوراً عن الحضارة التى رمته بقشورها فأرخت أعصابه وأنثت شمانله، وخنثت طباعه، وقيدته بخيوط الوهم، ومجت فى نبعه الطاهر السموم، وأذهبت منه ما يذهب القفص من الأسد من بأس وصوله (٣)!!  
إن وصول الفكر الإسلامى إلى محاط الثقة الذاتية كان ضرورة حتمية، بالنسبة لأشواط الصراع الحضارى التى قطعها فى رحلته مع

(١) آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ج ١، ص ٢٥٩ طبع الجزائر.

(٢) المكان السابق.

(٣) عنون البصائر ٥٨٦/٢.

## الحضارة المعاصرة...

إن هذه الحضارة لم تقدم لعالمه الإسلامى ولا للبشرية إلا السموم الأخلاقية التى ينكرها دينه القويم.

-- ومع كل تقدم تكنولوجى، فقد سخرت هذه الحضارة صنوف تقدمها فى خدمة الغرائز الدنيا والأهواء الجامحة..

- وعندما يفكر العقل المسلم فى الصياغة الأخلاقية للحضارة الحديثة يجدها صياغة لا مكان للأخرة فى نظرتها، ولا مكان للعفة والشرف والوفاء والالتزام الأدبى نحو الإنسانية فى برامجها.

إن «إعلامها» ووسائلها «التربوية» (وكتبها) و (هيكلها الاقتصادى)، وأساليبها (السياسية)، وبرامج «سباقها التسليحي»... كل هذه المجالات وغيرها مقطوعة الوشائج بالقيم العليا، لا مكان فيها لما وراء الدنيا، ولا تكتنفها الرؤى الإنسانية والأخلاقية العامة.

- إن «الصدق» الذى هو أساس الأخلاق الإسلامية والذى يعتبر تجاوزه كبيرة من الكبائر إنما ينظر إليه على أنه (سذاجة) فى المجالات السياسية، إذ «المكيافيلية» هى الدين السياسى المتبع فى أروقة السياسة الدولية.

- وإن «الرحمة» لا تعدو أن تكون (ضعفاً) فى عرف هذه الحضارة.

- وكل شئ مباح إذا ما قامت الحرب... فلا مكان أمام التسليح الحديث لرحمة شيخ أو طفل أو امرأة.. بل الأسلحة (الذرية) و (النووية) قد صممت لتؤدى وظيفتها بطريقة شمولية!!

وبإيجاز، وبعبدا عن الاستطراد، فإن المسلم يجد مبادئ قرآنه

وسلوك نبيه - عليه الصلاة والسلام - اللذين يشكلان نبراس حضارته ومقاييسها يرفضان الفلسفة الأخلاقية لهذه الحضارة .

وإن أخلاقه السياسية والحربية والحضارية التي تحفظها ذاكرته التاريخية لتقدم له نماذج أرفع بكثير مما قدمته هذه الحضارة المعاصرة ... وبالتالي فلا معنى لأن يترك الأعلى ويهبط إلى الأدنى .

على أن الجوانب التكنولوجية التي تزدهر بها هذه الحضارة - وهو زهو في موضعه لو أمكن لها تسخير التكنولوجيات لخدمة التطور الروحي للإنسان ... هذه الجوانب لا تتعارض - أبداً - مع الفكر الإسلامي ، بل هي مما يجيده الإسلام باعتباره الدين الذي يبحث على العلم ويعتبره عبادة ، ويسوق قرآنه نحو سبعمائة آية تدور حول العلم والفكر واللب والعقل .

وفي حكم الشريعة الإسلامية - كما يدرك المفكر المسلم - أن تخلف المسلمين في علوم الآفاق والطبيعة والرياضيات البحتة والتطبيقية والكيمياء والطب والقضاء ... إنما هو إثم يقع على مجموع الأمة باعتبار التقدم في هذه العلوم ( فرض كفاية ) يقع واجبه على جميع المسلمين إذا فعله بعضهم سقط عن الباقيين ، وإذا لم يفعله بعضهم يآثم الجميع ، والقيام به يصبح ( فرض عين ) على من يمكنهم القيام بواجبه .

وفي ضوء هذا فلا انشقاقية في فكر المسلمين بين علوم الروح وعلوم المادة .. بل هما معاً ضرورتان للحياة ممتزجتان امتزاجاً كاملاً ، بل يخدم كل منهما الآخر ، ويحمى - على درب الحضارة - خطاه .

### الطريق لإقامة حضارة إسلامية معاصرة :

إن الفكر الإسلامي - في هذه المرحلة الناضجة من وعيه - قد وصل إلى منطلق خطير في تفاعله - أو صراعه - مع الحضارة المعاصرة ...



ولقد أصبح (واجباً) عليه أن يطرح البديل لسكونه التثاقلي في قرون التوقف - من جانب - والبديل لحضارة الحركة المجنونة التي تكاد تفقد معظم التسوابط والمعايير من جانب آخر .

وماريق الفكر الإسلامي - عند هذا المنعطف - ليس ملائمة .  
لما أن ما قطعته من أشواط - خلال صراعه الطويل مع الحضارة الأوروبية - لم يكن سهلاً كذلك . فالصراع - برمته - قضية وجود .

**ولابد لعبور هذا المنعطف الجديد من قوس المعالم التالية :**

**أولاً :** الثقة المطلقة فيما قدمه القرآن من صياغة للحياة ، وفيما قدمته حياة الرسول عليه الصلاة والسلام لنا من نموذج قرآني مثالي . ولئن كان غيرنا بالعقل المحض - مثل (مايكل هارت) قد جعل محسناً (العذليم الأول) في التاريخ فإننا - بالعقل والإيمان - يجب علينا إذا أردنا إنقاذ أنفسنا من وطأة النموذج الغربي للحياة وإنقاذ البشرية كلها العودة بثقة كاملة إلى القرآن نتلوه كأنما أنزل علينا ونمثل سلوك نبينا باعتباره المثل الأعلى لنا .

**ثانياً :** إن الفكر الإسلامي في مواجهته للحضارة المعاصرة لم يتخلف في المجال التكنولوجي أو المادي فقط ، بل إنه تخلف فيما هو أخطر ، فقد ترك العلوم الإنسانية من تربية واجتماع واقتصاد وعلم نفس وإعلام ومناهج بحث تاريخي وفلسفي وجغرافي للحضارة المعاصرة ، وعاش هو يجتر ماضيه دون مواكبة للوسائل الحديثة المتطورة ، ولا أمل في مواجهة الحضارة المعاصرة مع الخضوع لنظرياتها وفلسفاتها في هذه العلوم الإنسانية المتصلة أوثق الاتصال بصياغة الحياة وفلسفتها .

وعلى الفكر الإسلامي أن يقتحم - بالضرورة - هذه العقبة ، وأن يبني

المؤسسات الإسلامية الأصيلة - جوهرًا - والمتطورة وسائل وطرائق بحث في المجالات التربوية.. والاقتصادية (وقد قطع الفكر الإسلامي شوطاً طيباً نظرياً وعملياً في هذا المجال) والاجتماعية والإعلامية «والسيكولوجية» وغيرها...

ثالثاً : وفي ظل المعلمين السابقين : (الثقة في القرآن والرسول) و (إقامة صرح التصور الإسلامي للعلوم الإنسانية) على المسلمين أن يدخلوا معترك السباق التكنولوجي والمادي، ونقطة البداية في هذا الموضوع هي التقليل من (الاستيراد) إلى أقصى حد ممكن، وتشجيع الاختراع والصناعة الإسلامية مهما كانت بدائيتها، وإذا كانت الهند -كلها تقريباً- تتركب سيارة (امبسador) الهندية بدءاً من رئيس الجمهورية والوزراء وحتى المواطن العادي، مع أنها سيارة بدائية جداً بالنسبة للسيارات الأمريكية وحتى اليابانية -فأحرى بنا نحن المسلمين- بل إنه لواجب شرعي -هجر هذه السيارات المستوردة الفارهة والإصرار على أن تكون لنا سيارة إسلامية.. ثم طائرة إسلامية.. ثم أسلحة... وهكذا.... مهما كانت بدائيتها... ولا طريق للتطور الحق إلا عن هذا الطريق... أما طريق الاستيراد، فهو طريق الموت البطيء... والتبعية الذليلة، وهو ليس طريق البناء الحضاري على أية حال.

رابعاً : وبما أن الرفض وحده ليس كافياً في علاج أية أزمة حضارية فلا بد من اعتماد سياسة البدائل، فمع رفضنا لكل التصورات غير الإسلامية علينا أن نضع مكانه البديل الإسلامي «المبرمج» المخطط له، الذي يشبع سائر الطاقات ويملك الوسائل الفنية المعاصرة، ويحتفظ بمقومات التصور الإسلامي السليم.

وهذا الأمر يجب أن نطبقه في (الفن) رواية ومسرحية وفيلما

وتمثيلية، وأن نطبقه فى النظريات الإعلامية والتربوية والاجتماعية ووسائل الترويج والتثقيف المختلفة، وفى المجالات الاقتصادية أيضاً.

(فالبديل) هو (الحل الحضارى) الصعب والضرورى، وأما مجرد (الرفض) فهو أمر سهل يستطيعه كل عاجز وضعيف.

**خامساً :** وتجنباً لعثرات الطريق الذى انحدرت إليه أوربا كرد فعل لما أرادت الكنيسة فرضه على الحياة من زهد وكبت وإرهاب، فإننا يجب أن نلتزم بمنهج الإسلام فى احترام الفطرة الإنسانية وتيسير كل السبل لتصرف الطاقات الإنسانية فى المصارف الحلال وبالتالي فيجب فتح نوافذ الحلال على مصراعيها - فى الإطار الإسلامى المتوازن - حتى تغلق أبواب الحرام التى فتحت على التجربة الأوربية بتأثير المنهج الكنسى العقيم... فعلىنا تيسير عمليات الزواج وجعلها حقاً للفرد على المجتمع... وتيسير «التزويج» الحلال والعمل الحلال، وإنهاء عصور القهر السياسى، وإذلال الشعوب باللحمة والسكن، وتبديد طاقاتها فى مشكلات الحياة اليومية، بينما يخطط غيرها لما بعد القرن العشرين، ولما بعد المراكب الفضائية، وحرب النجوم... بينما ينكفى المسلم على نفسه محاصراً بهذه (المقاتل) المعاشية والسياسية والاجتماعية التى تخنق فيه طاقات الإبداع وتشل طموحاته العظيمة.

**سادساً :** إن أية تنمية أو عملية تحضير بدون (إنسان مؤهل قادر) هى عملية خاسرة، ولن تغنى المبانى العملاقة المجهزة بأحدث الوسائل العصرية عن (بناء الإنسان) نفسه، ولا بناء للإنسان إلا إذا كونه تكويناً عقدياً سليماً، وزرعنا فيه الانتماء لدينه ولأمتة، واحترمنا (عمره) الذى هو (وقته) فاختصرنا له الإجراءات الروتينية المدمرة، وقمنا بثورة (إدارية) فى شتى المرافق بحيث تختصر (الإجراءات) بنسبة لا تقل عن (٩٥ %) من الأساليب المطبقة حالياً!



سابعاً : ومع إيماننا الكامل بأن الأسباب الداخلية هي أهم الأسباب في عملية التحضير «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» فإننا نرى أنه من الحتم على الفكر الإسلامى أن يقوم بتحرير الأمة الإسلامية من قيم الجمود والجزئية والعقم وضيق الأفق التى ورثتها الأمة من بعض عصور الانحطاط والتى ضربنا لها مثلاً بالذين رفضوا تسليح تركيا بالسلاح الحديث، وهو مجرد مثال توجد له نظائر بالملئات... بحيث إن الفهم (الهرمى) لحقائق الإسلام أصبح مقلوباً، فوضعت الفروع مكان الأصول فى بعض الأحيان، وأغفل التركيز على أساسيات الحياة الإسلامية كالعدل والشورى وحماية حقوق الإنسان المسلم وعمليات إبادة الشعوب الإسلامية وبيع حقوقها وكرامتها لأعدائها... بينما يتركز اهتمام بعضهم على بعض السنن والنوافل وهيئات الصلاة وحرمان المرأة من المسجد!!

وفى المقابل -وبالتقدير نفسه- يجب حماية الأمة المسلمة من القيم الأغلاية الوافدة من المستغربين الذين سقطوا تحت تأثير الإشاعات الأوربية وانبهروا بها .

فالمنهجية النقدية الواثقة يجب أن تكون (المبضع) الذى نتسلح به فى وجه القيم الضيقة، والقيم المتفسخة... وأمامنا -بعد كل ذلك- الميزان الذى نتمسك به.. ولن نضل -بإذن الله أبداً- مهما طالت غربلتنا للماضى، ومهما تعددت مجالات صراعنا وحوارنا الفكرى مع الحضارة الحديثة...

ذلك لأننا لا نصارع هذه الحضارة -ولا نحاورها- بفكر مجرد لا قواعد له، وإنما نتعامل معها بفكر الإسلام ذى القواعد الثابتة والحوار المنطلق الرحب الذى لا يرفض الإفادة من شتى التجارب الحضارية التى تريد -بحق- أن تخدم قضية الإنسان على هذه الأرض!!



الفصل

الثالث

الأزمة الثقافية المعاصرة للمسلمين

وفق التاريخ



## مناهج ردود الأفعال

ليس شباب الأمة -أية أمة- عضواً مقطوعاً عن سائر الأعضاء... إنه مرحلة من المراحل التي يمر بها كل المجتمع، وهو -حين يمر بهذه المرحلة- لا يعدو أن يكون عضواً -وإن كان العضو القوي- في جسد الأمة. وعندما نحاول رصد عضو من أعضاء المجتمع، أو مرحلة من مراحلها سواء كنا بصدد قضية كالطفولة أو الشباب أو المرأة -مثلاً- فإننا يجب أن نكون واعين بالأبعاد الاجتماعية والإنسانية كلها، إذ ليس هؤلاء جميعاً إلا أجزاء يتبادلون نوعاً من التفاعل الذي يربط الأفراد بالجماعة..

والمنظور الصحيح يقتضى.. ونحن نعالج قضية ما أن نعطي لمجموع العوامل والقوى الفاعلة نصيبها، وأن يكون تحليلنا قائماً على أساس (البناء الكلى) الذي أفرز لنا وضعاً خاصاً تتسم به كل شريحة من شرائح الأمة..

ولقد بقيت كثير من المناهج تنظر إلى بعض الأوضاع نظرة جزئية محدودة، وتصف لها علاجاً منسجماً مع نظرتها.. فهي تحاول -في مواجهة ما تراه مثلاً- من تخلف علمي -أن توصي (بالتربية العقلية)... وفي مواجهة ما تراه من أنانية فردية -توصي بالعمل على إيجاد (الروح الاجتماعية)... وفي مواجهة الفراغ وما يتبعه من سلوكيات سلبية توصي (بملء الفراغ) ببرامج ترويحوية وتنشيطية ورياضية، وهكذا يمتد العلاج متتبعا كل حالة (مرض) أو (سلبية).. دون أن يكون لهذا الدور والتسلسل، والدور والتسلسل المضاد، أية نتائج إيجابية تسمح بمردود حضارى ملموس.

إن مثل هذه النتائج العاجزة، والتي تحاول معالجة أوضاع الأمة

الإسلامية الاقتصادية والثقافية والنفسية والاجتماعية بهذه الأساليب.. لم  
تصل - كما أنها لن تصل - بالأمة إلى انبعاث حقيقى..  
-لقد حاولنا علاج تبعيتنا السياسية للشرق والغرب منطلقين من هذا  
المنظور.

-ولقد بذلنا الكثير حتى وصلنا إلى ما يطلق عليه بعضهم  
«الاستقلال» السياسى، الذى انتقل من كونه (ظاهرة صحية) إلى  
كونه (مرضاً) أبرز ظواهره التجزئة والحدود المرسومة والإقليمية  
الجغرافية الانفصالية..

-ولقد حاولنا علاج تخلفنا الاقتصادى بالمنظور نفسه.. فكان أن  
تورطنا فى نظريات لا صلة لها بنا ولا بأمراننا الحضارية.. ولقد  
استوردنا بهذه النظريات دواء لآعلاقة له بأمراننا.. لمجرد أن مرضى  
آخرين استعملوه، حتى إننا لم نفكر فيما إذا كان هذا الدواء الاشتراكى  
أو الرأسمالى قد نفع أصحابه الأصليين أم لم ينفعهم...!!

وفى المشكلات الثقافية والفنية والجمالية والنفسية وقعنا فى الخطأ  
نفسه، وتجاوزنا عن إدراكنا الشامل لحقيقتنا، ولظروفنا الحضارية  
الموصولة بتكويننا التاريخى... ورحنا نعالج الأمور بمذهب فنى  
نستورده من هنا أو (رؤية جمالية) نستوردها من هناك.. أو بعض  
مصطلحات غائمة لا مضمون حقيقى لها فى كياننا ووجداننا الشعورى  
نبتسرها ابتساراً من الحقيقة التى أنجبته... واختلطت فى أيدينا  
أنواع الأدوية حتى أصبحت مزيجاً لا يصلح لشيء.. بل أصبحت هذه  
الأدوية داء جديداً يفسد مرحلة الخروج من الاستعمار السياسى،  
ويجعل أعضاء الجسد الإسلامى يهدم بعضها بعضاً.. فالقلب يختلف مع  
العقل.. والروح تنفصل عن الكيان، والكيان الواحد صار عدداً من



الكيانات المتناقضة، حتى وإن بدا في الظاهر كياناً واحداً.

### القضية الأساس: معرفة البداية

خلال القرنين المنصرمين: الثالث عشر والرابع عشر للهجرة كانت الأجيال المسلمة تعيش عصراً من أشد عصورها قسوة ووطأة.. وكانت مفردات الامتحان صعبة للغاية، ولعلها كانت أكبر من المستوى الحضارى الذى يعيشه عقل الإنسان المسلم.. والغريب فى هذين القرنين أن عوامل الانهيار كانت تلتحم التحاماً كبيراً بعوامل النهوض.. فبينما كان الاستعمار السياسى والعسكرى، وما يتبعه من غزو تغريبي يجتاح العالم الإسلامى ويعرض حلولاً تغريبية وعلمانية ومادية وانفصالية عن الحضارة الإسلامية، كانت خمائر النهضة الحقيقية تبرز متألفة فى عدد من المبادئ والشخصيات فى الوقت نفسه.. كما استطاع الإسلام أن يجهض الانتصار التتري العسكرى والسياسى، ويحول التتار إلى جنود للإسلام، كذلك نجح الإسلام فى أن يجهض الانتصار السياسى الأوروبى، وظهرت على امتداد العالم الإسلامى حركات واثقة تفصل فصلاً كاملاً بين الانتصار السياسى، والانتصار الحضارى. وتقدم تصوراً (بديلاً) نابعاً من التجربة الحضارية الإسلامية لكل ما يطرحه الغرب من مقولات ونظريات.. بل وترى فى التقدم الغربى العلمى و (التكنولوجى) (سيف جالوت) الذى سرقه (الغرب) من المسلمين، حين جلس تحت أقدامهم يتتلمذ على علمائهم فى قرطبة وإشبيلية و طليطلة وغرناطة وصقلية، وبجاية والقيروان والقاهرة، وفى الحروب الصليبية التى استمرت مدة قرنين، ثم جاء (الغرب) يقتل المسلمين بهذا السيف الذى سرقه فى غفلة من أصحابه الذين كانوا يمرون بمرحلة تخدير حضارى، فى نفس قرون تفاعل الغرب مع القيم الإسلامية التى نقلها خلال احتكاكه بنا.!!

وبينما كانت فرنسا تحتفل بمرور مائة عام على احتلالها للجزائر، وكان مندوبها السامي يعلن في الاحتفالات نعي الجزائر المسلمة العربية إلى الأبد، فوجيء العالم برجل يلبس العمامة والبرنس المغربيين يتحدى -ومن ورائه جمعية العلماء المسلمين الجزائرية- كل عمليات الإبادة الحضارية ويعلن من خلال دروس للقرآن في قسنطينة بالشرق الجزائري أن (الهوية) الجزائرية الإسلامية ما زالت تتحدى، وأن «شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينسب».. ولا تمر بضعة عشرات من السنين من الجهاد الفكري والدموي حتى تتحول آلاف الكنائس التي لم يتبناها -ولا جزائري واحد- إلى مساجد، وتعود اللغة العربية اللغة الرسمية ولغة الحياة.. وتعود الجزائر بفضل حركة الثقة في الذات الإسلامية إلى الحضارة الإسلامية..

ولئن كانت الجزائر مثلاً اخترناه لبروزه، فالحقيقة أن الوعي بحقيقة الذات المسلمة كان وراء كل حركات التحرر، حتى وإن سرق الثمار بعض المعادين للإسلام الذين زرعهم الاستعمار بعد أن أحس بحتمية خروجه، وبعد أن امتلأ حقداً على الإسلام الذي قاد حركة التحرر.. فأراد أن يحول دون أن يجنى الإسلام الثمرة التي غرسها.

ومع ذلك، فإن الأمر كان -كما ذكرنا- يقوم على اشتباك عوامل السقوط بعوامل النهوض، ولئن كان المتنكرون للإسلام وحضارته قد سقطوا في المعادلة الحضارية السليمة للتقدم، فإن بعض أنصار الحضارة الإسلامية قد سقطوا أيضاً حين راحت جماعات منهم تحاول رفض الحياة في الحاضر والمستقبل بالجملة، وتتعامى عن التحديات الجديدة.

وأصبح الماضي -بدل أن يكون الطريق المضمون للمستقبل- يطرح -فكراً وتطبيقاً أحياناً- وكأنه البديل للمستقبل.

وعادت إلى الفكر والواقع كل أمراض الماضي تطرح نفسها - مع  
ثبوت فشلها - باعتبارها حلولاً للمستقبل.. فعادت القومية، وعاد  
الجمود العقلي، وعادت المعارك الفكرية الوهمية في القضايا الكلامية  
واللفظية..

وهكذا - إما لبواعث التخدير الطارئة بعد الحروب الصليبية - أو  
لعمامل التخدير الذي سببته بعض العلوم المحسوبة على الإسلام راحت  
جماعة من المسلمين تولى وجهها شطر الماضي بنظرة تكرارية، وكأنها  
تريد إعادة الدورة الحضارية الماضية بكل عناصرها وتحدياتها وأبطالها  
وحبكتها ومقدمتها ونهايتها، ولهذا فهي لا تريد أن تقف من هذا  
الماضي العظيم (النموذجي) - كما ينبغي - موقف الاحتذاء والتأسي  
والإضافة إليه، والانطلاق منه نحو المستقبل.. كلا.. بل راحت تلغى  
(الحاضر) وتستنكف رصد (المستقبل) ولا تلتفت حولها إلى ما يدور  
على الشاطئ الآخر في غرب الدنيا من عالم جديد يطرح نمطاً  
جديداً للحياة وتحديات فكرية ومعاشية جديدة... بل على العكس..  
وجدنا بعض الأبطال الذين اندثروا وفقدوا وجودهم، وانتهت  
(المشكلات) التي (أحدثوها) والمشكلات الأخرى التي (واجهوها)،  
وبليت «الأسلحة» التي حاربوا - أو حوربوا - بها.. لقد وجدنا هؤلاء  
(الأبطال) يعودون - مرة أخرى - وكأن الزمان ما زال زمانهم، وكأن  
الحياة قد جمدت عند أعتابهم.. مع أن نهر الحياة دافق بالحركة لا  
يتوقف عند أعتاب أحد.

... لقد عاد المنطق اليوناني القديم.

- ولقد عاد الماتريديّة من جديد.

- وعاد الأشاعرة.

- وعاد المعتزلة.



- وعاد المرجئة.. وبايجاز عاد (علم الكلام) كما كان يفرض طابعه (الكلامى الجدلى) على واقع لا يتحملة..  
- وعادت قوافل الصوفية التى خدرت العالم الإسلامى ردىاً من الزمان..

- وعاد الفقهاء يحملون معهم -إلى جانب التعصب- تلك العوامل التى أدت إلى إهمال طريق (السنة الشريفة) الذى هو السبيل الوحيد لإدراك حقيقة الإسلام.. وليس (المنطق اليونانى) -فى الحقيقة- ولا علم (الكلام الجدلى) ولا (الفقه التعصبى) ولا (التصوف) إلا صوارف عن هذا الطريق، وتمزيقاً للرؤية، وعودة -غير حميدة- لعصور سيطرت فيها عوامل التخلف على الحقيقة الإسلامية.

### السنة والنموذج القدوة :

إن أصحاب الرسول-عليه الصلاة والسلام- لم يفهموا القرآن الكريم ولا سنة النبى على أساس هذا (المنطق الصورى) ولا (علم الكلام) !! ولم يكونوا بحاجة إلى (تصوف) يعلمهم كيف يتفاعلون مع كتاب الله أو كيف يقومون الليل... كما أن التفريعات الفقهية المصحوبة بتعصب لم تكن من أركان منهجهم ولا من منهج قادة المذاهب الفقهية أنفسهم (رضى الله عنهم).. بل إن أكبر خسارة لحقت بنا هى ربط فهم الإسلام بهذه المعتقدات اليونانية أو الأصول الكلامية الجدلية المتواضع عليها عند أصحابها...

إن هذا قد أدى إلى ظهور منهج (فنى) - جديد لتدبر الإسلام وفهمه وبيان مسأله - مغاير تماماً لمنهج الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام (١) وهكذا.. تمخض القرنان المنصرمان عن استقلال

(١) انظر وحيد الدين خان، تجديد علوم الدين (طبع دار الصحوة بالقاهرة).



سياسى (ناقص) يكاد يفقد جدواه... إذ إنه -ولا سيما بعد بداية عصر الاستقلال وهدوء حدة العداء للغرب الاستعماري- بدأت أفكار مفسدة تطرح بقوة.. وبدأ ميزان الحقائق يختل في عقول الأجيال المسلمة.. وضاعت معالم الحق، ووجد متعلمو الشباب أنفسهم وسط طرق كثيرة متناقضة، كل طريق له رجاله ودعائه ونماذجه القيادية التي يطرحها، وحتى نموذج الرسول (الذي هو نموذج السنة) -أى طريق الرسول- كدرت منابع التلقى عنه، تلك الطرق التي تحدثنا عنها، فابتعد العقل المسلم عن منطقة الجاذبية النبوية، واستقطبتهم إليها ( في رحلة تيه) نماذج أخرى.

\* \* \*

إن الإنسان المسلم ليحس خلال التناقض الذي يعيشه في عصرنا أنه يفتقد القدوة الصالحة في القيادات المتعددة، وتأثير القدوة في النفوس أقوى من الأقلام و الخطب، وتاريخ المسلمين ملئ بنماذج من الرجال الأكفاء الذين كانوا منارات هدى وسبل نجاح للأمة، وعلى رأسهم الرسول القائد صلى الله عليه وسلم الذي خرج جيلا من القادة ما جاد الزمان بمثلهم، ثم كان في تاريخ الإسلام رجال غيروا وجه الحياة وعكسوا مجرى التاريخ للأحسن، وكانت القدوة موجودة في كل مكان في السياسة والعلم، والحرب والدولة، في الدعوة والجهاد... وقد دفع هذا النقص الشباب إلى أن يدرس حياة شخصيات زينها الباطل، وأوجدتها الدعاية، من علماء وسياسيين و مفكرين، كفرة ومسلمين، ولم تكن شخصية من هذه الرموز إلا ولها عداء للإسلام وحرب عليه، ولذلك يفتقد العالم الإسلامى مثل القدوة التي غيرت وجه التاريخ وحققت الانتصارات الحربية والعلمية و الأدبية، ونقلت المجتمع إلى مصاف المجتمعات التي تنتج وتبتكر، وتكتشف، وتضيف إلى التمدن

والحضارة مثل ما أضاف جيل الحضارة الإسلامية الزاهر (١) .

والشباب يعلم أن الزيف استشرى في أوجه الحياة، وأن اليأس من التغيير يكاد يجمد النفوس الضعيفة، ومناهج الدراسة لاتجد في حياة المعاصرين من يمثل تلك القدوة فتلجأ إلى قادة المسلمين السابقين، وربما كانت السلسلة لا تتعدى عهد صلاح الدين الأيوبي إلا قليلا، مع تعمد إهمال بعض الرموز التي غيرت من فكر الشباب واعتزازه بدينه وتاريخه وأمته وفكره، بل بتشويه الصورة الطيبة التي قدموها أنموذجاً للأجيال، ثم إبراز شخصيات كانت سبباً في تعاسة الشعوب وتخلفها وهزائمها، الأمر الذي يقابله الشباب بالسلبية والتعجب، حيث انقلبت الموازين وأصبح الزيف حقيقة والباطل حقاً والجبان بطلاً والخائن أميناً، والبخيل كريماً (٢) .

\* \* \*

إن (السنة) (التي ندعو إليها) - أي العودة إلى طريق الرسول - لا تعنى الالتزام ببعض الجزئيات والنضال دونها، بل تعنى التفاعل الكامل مع نسق الحياة التي قدمها - بأقواله وأفعاله وتقريراته - إمام حضارتنا محمد بن عبد الله (عليه الصلاة والسلام) عبر (دورة) حضارية متكاملة تنتظم سائر الحالات الإنسانية.. إنها تعنى الانغماس في صناعة التقدم الإنساني وفق الصياغة المتوازنة والإيجابية التي قدمها الرسول وصحابته، بحيث نجح هذا الجيل في أن يستجيب الاستجابة المثلى للتحديات التي واجهته عندما فتح الله له فارس والروم...

(١) د. عباس محجوب : مشكلات الشباب - قطر - ص ٦٦ .

(٢) د. عباس محجوب : مشكلات الشباب الحلول المطروحة والحل الإسلامي ص ٦٧ .

والسنة -أيضاً- تعنى وجود خريطة واضحة للحياة الإنسانية التى يريدّها الإسلام ووجود أهداف شاملة محددة لهذه الحياة... وذلك على العكس من الطرق الصارفة عن السنة تلك التى تنتهى إلى حصر حياة المسلم فى نطاقها، (صوفياً) كان أو (فقهياً) أو (كلامياً) بل والذود عن هذا (النطاق) وكأنه كل القضية.. والإذابة -بالتالى- لمعالم الخريطة الشاملة والمنهج الواضح والأهداف المحددة للمسلم فى هذه الحياة التى استخلف فيها، ووكل إليه أمر عمارتها بعون الله.. بل إن (الصوفية) -مثلاً- تجعل الحياة لا معنى لها... وتدعو إلى (غيبوبة) اجتماعية، وتعطى قيمة (العمل) و(التغيير) و(الإبداع) فى الحياة دوراً ثانوياً لا قيمة له.. بل وتدعو (الذات الفردية) إلى إماتة نفسها، ليس استعلاء على المادية والسباق الحضارى -مع القدرة عليهما- بل انسحاباً من دخول معركتيهما.. وترك مجاليهما لأعداء الحضارة الإسلامية !!

أجل.. إن البداية هى أن نتجاوز كل الصوارف، ونتفق على النموذج والإمام ونرفض البدائل، ونحترم كل من قادوا حضارتنا إلى طريق السنة، حتى وإن بدوا أمام عقول القاصرين وكأنهم صرفوا الناس عن السنة (إن صح الحديث فهو مذهبي - الإمام الشافعي)...

إن الرسول الذى رفض إسقاط النزعات الفردية الجامعة على الحقيقة الإسلامية المتوازنة، وقال لدعاة الإسقاط الفردى : ( إنى لأتقاكم لله وأخشاكم له، لكنى أصوم وأفطر، وأنام وأقوم، وأتزوج النساء...) .

هو -وحده- دون كل النماذج. الجدير باقتفاء أثره والتأسى به.

إن راعى الغنم، وتاجر خديجة، وقائد بدر وأحد، والمؤتمن على أموال أعدائه، والقاضى بين الخصوم وهو يخشى أن يلحن أحدهم



فيخذه، وزوج عائشة وأبا فاطمة وإبراهيم، ومحتسب الأسواق، والسمح اللين حين القدرة، وليس الحقوق الذي يتباهى بتصفية خصومه بطريقة دموية.. والذي يجوع كما يجوع الناس، وينام على الحسير حتى يؤثر في جنبه، وإمام الناس في صلاتهم، ومعتكف المسجد، وحافر الخندق، وحبيب أبي بكر وعمر أكثر من نفسيهما...

هذا الرسول الإنسان الذي عاش الحياة بكل أعماقها، وابتلى بخيرها وشرها، وقدم لنا (تجربة كاملة) للإنسان الإيجابي.. الذي يحترم (الإنسان) في نفسه وفي غيره - ويحترم الحياة (الوقت) لنفسه ولغيره.. والذي يؤمن بدور الإنسان الرائد في الحياة.. وبدوره الفاعل فيها حتى ولو لم يكن له نصيب من الحصاد... (إن قامت القيامة وبيد أحدكم فسيلة فليغرسها) هذا (الإنسان) - الرسول.. الذي عامل كل الناس وتعامل معه كل الناس باعتبارهم (أناس) لا باعتبار هوية (طبقية).. ولا مذهبية (مادية) ولا جاء اجتماعي، ولا مركز سياسي... ولا مصلحة شخصية.. بل وجد الجميع في ظله المعنى الحقيقي للإنسان.. والأهداف الصحيحة للحياة الإنسانية.. هذا (الإنسان) - هو وحده - وليس أي بطل آخر في تاريخنا، ولا أي صاحب مذهب مادي أو اجتماعي أو فلسفي نستورده من خارج إطارنا الحضاري - الذي يستحق أن نتأسى به ونترك أزمنا له.

إن تمثل حياته «سنته»، وإن الإيمان والسعي نحو الالتزام بما تركه فينا من قيم وعبادات وتشريعات وتجربة عملية.. هي البداية الصحيحة للخروج من معترك الأفكار الضبابية، والتمزقات المذهبية والاتجاهات الوجدانية والعقلية والكلامية التي شتت رؤانا ومزقت خطواتنا وأضاعنا كثيرا من المعالم الصحيحة أمام شبابنا المثقف، من خريجي الجامعات أو من الذين تعلموا بطرق أخرى، فضلت خطواتهم على



الطريق، واتجهوا إلى الشرق والغرب، في رحلة تيه وضلال...

ولقد كان العامل الأكبر -بالتالى- وراء بروز «عصر الضباب» وهو المصطلح الذى يصح أن نطلقه على مسيرتنا فى القرنين الماضيين - هو أننا سمحنا لذاتنا أن تتبعثر، وسمحنا لعقلنا أن يتفلسف من جاذبية السنة، ويرنو إلى عدد من التجارب التى انبهر بأضوائها أو ببعض صور التقدم التى أحرزتها... بل إن شباب هذا العصر، والشباب الذى يعيش آثار مسيرة هذا العصر لم يجد أمامه طريقاً واحداً يمشى فيه، بل وجد كوكبة فى كل شئ... : كوكبة فى الآراء الاقتصادية... وكوكبة فى أساليب التحرر السياسى.. وكوكبة فى الآراء الاجتماعية... وكوكبة من النظريات الفلسفية التى تفسر كل منها الحياة بطريقة تتناقض مع الأخرى.

وقد ساعد على هذا الضياع أن حجم الأمة فى هذه المرحلة لم يكن قويا يتحمل هذه الأدوية المتناقضة، فلكل مرحلة حضارية قدراتها على الاستجابة للتحديات... وقد كانت المرحلة تقتضى التشبث بالمنهج القادر على تحقيق الاستقرار، وتوفير الانطلاق والإبداع، وليس شرطاً أن يكون ذلك (بستار حديدى) حتى نتجاوز المرحلة -كما فعل الاتحاد السوفيتى - ولا بعنف دموى - كما فعل (بسمارك) فى توحيد ألمانيا - ولا بسلسلة من الحركات الدموية التى تفتقد الهوية والهدف - كما فعلت كثير من الشعوب الإسلامية التى لم تصل فى النهاية إلى شئ...!!

كلا... فمنهج التحول الإنسانى نحو طريق الحضارة -ولا سيما حضارة الحضارة الإسلامية لديها الكثير مما تعطيه للعالم ومما يفتقده العالم - كان يحتاج فقط إلى المنهج الذى يتلاءم مع إنسان المرحلة، ومع طبيعة المرحلة، ومع التحديات التى تحتاج إلى استجابة تلائم

المرحلة نفسها، ويعبر - كذلك - عن التيار التاريخي والنبض الخاص والشروط الاجتماعية وطموحات الأمة نحو التميز والسبق الحضارى .

### إنسان الجامع والجامعة ؛

ثمة مفارقة غريبة يلمحها الناظر المتعمق فى منعطفات مسيرتنا الحضارية، فذات يوم كان (الجامع) هو المسيطر على حضارتنا ومسيرتنا نحو صناعة التقدم، حتى مع سبقنا فى بناء (الجامع الأزهر) و (جامع الزيتونة) و (جامع القرويين) والمدارس النظامية ..

كانت صناعة الإنسان هى الشغل الشاغل للمربين والمعلمين والدعاة والجوامع والمدارس والوعاظ .. وكما كانت الجاهلية تحتفل بميلاد شاعر لا اعتبارات خاصة بها، فقد أصبح ميلاد داعية أو محدث أو مفكر عملا من أعظم الأعمال .. ولم نعرف - أبداً إلا فى عصور الهوان - تخريج الفقهاء أو علماء الكلام أو المحدثين أو الوعاظ فحسب، بل كان كل هؤلاء يتخرجون (دعاة) قبل أن يتخصصوا فى أى (فن) يريدون ... بل حتى مرحلة (الفنية - الحرفية) هذه كانت شبه عيب يلحق بمن يوصم بها .. وفى ضوء هذا لم يكن العمل قرين العلم فقط ... بل كان الدليل على صحته والثقة فيه وإجازة احترامه وبقائه ..

وليس أئمة الحديث فقط الذين كان يجب أن (يعدلوا) أو أن يجرحوا ... بل حتى علماء الجغرافيا والرياضيات والطبيعة والتاريخ كان الطعن فى دينهم يحول دون الأخذ عنهم، ويدفع إلى نبذهم . ومع أن علماء المسلمين أجمعوا على أن تاريخ الأمم والشعوب يمكن أن يؤخذ عن أهله المتسلسلين ولو كانوا كفاراً - إلا أنهم - فى المحيط الإسلامى شرموا العدول والثقة فيمن يسجل تاريخهم، ونبذوا من عرف بنحلة فاسدة أو مهالاة لحاكم ... ووضعوه فى مكان خاص ...

والمفارقة العجيبة... هي :

ماذا حدث فى مسيرتنا هذه ؟ ولماذا أسقطنا - كغيرنا من الأمم -  
الربط بين (العمل والعلم ) وقلنا بنظرية الفصل بين السلوك الشخصى  
والمستوى العلمى، وأهملنا التربية وركزنا على (التعليم )، وأهملنا  
كذلك (التثقيف) الذى هو بمعنى التقويم (ومنه تثقيف الرمح أى  
تقويمه) وفتنتنا كلمة (الدرجات العلمية) وتوسعنا فى (الكم) -مع  
أنافشلنا فيه- على حساب الكيف... واحتفلنا فى كل عام بتخريج  
(أعداد) لأبأس بها من الجامعات دون أن نحاول الكشف عن نسبة الـ  
(٩ %) من (النوابغ) التى وصلت إليها (اليابان) فى مقابل نسبة الـ  
(٧ %) التى وصلت إليها أمريكا... (١) ولم نسأل أنفسنا يوماً: كيف  
جمع البخارى بين هذا المنهج الدقيق فى الاستقصاء والبحث وبين هذا  
السلوك التقويم ؟ ولا كيف كان الأئمة الأربعة نوابغ فى علوم الإسلام  
مجتمعة... تفسيراً وحديثاً وفقهاً وتاريخاً، بينما كانوا على هذا  
الإخلاص لله والبعد عن الدنيا... وخريجو (جوامع) الأزهر  
والزيتونة والقرويين فى الأجيال الماضية: ما النسبة بينهم وبين  
خريجي (الجامعات) الحديثة وجامعات الأزهر والزيتونة والقرويين  
فى العصور المتأخرة، بعيداً -بالطبع- عن الألقاب الكبيرة التى لم يكن  
يتمتع بها الأسلاف (!)؟

إن حضارتنا لم تعرف -فى عصور تألقها- سياسة الفصل بين ما  
هو اجتماعى وما هو شخصى، ولا بين العلم والسلوك، ولا بين المؤهل  
الفكرى والمستوى النفسى والخلقى.. إن هذا (الفصل) ليس من

(١) وفى بعض الإحصائيات أنه لا يدخل الجامعات فى اليابان إلا ما بين  
١٠-١٥ % من الشباب والصراع شديد فى هذا (انظر التربية فى اليابان)  
ص ٥٧ طبع مكتب التربية العربى لدول الخليج، الرياض- ووردت نسبة  
البدوغ هذه فى مرات كثيرة.



مقوماتنا الحضارية، بل إن الرسول -عليه الصلاة والسلام- وهو أسوتنا، وحياته سنتنا - ونحن نعرف عنه كل شيء، وعظمته عندنا تنطلق من أننا نعرف عنه كل شيء... حتى أخس خصائصه الزوجية. وزوجاته التسع -اللائى يعتبرن من أظهر الأدلة على نبوته- كن يكشفن كل شيء، وقد عاش بعضهن بعده لأكثر من نصف قرن... وتحديثن فى كل شيء... وأثبتن أنه وحده فى التاريخ - الرجل الذى قامت أكبر الأدلة من داخل بيته وخارجه على عظمتة الكاملة... (وقد أثبت فى بحث آخر لى، أن قضية زوجاته التسع من أمضى الأسلحة التاريخية فى إثبات حقيقة نبوته.. فهو الوحيد الذى كان عظيمًا فى بيته ومع زوجات تسع يستحيل تواطؤهن على الكذب!! على امتداد هذه السنوات الطويلة التى عشناها معه وبعده).

### والسؤال ما زال قائماً وهو:

كيف نجحت (الجوامع) ولم تنجح - كما ينبغى على الأقل - (الجامعات) الحديثة - حتى الموسومة منها بالإسلامية - فى تخريب نسبة المفكرين والدعاة المعقولة؟ وكيف تعرض خريجوها الشباب لهذه السلبات الحضارية؟

إن الإجابة تتلخص فى أن الجامعات خضعت للمنهج السائد فى عصور التخلف فتأثرت بالمجتمع... ولم تقده - كما ينبغى - وسمحت (بالفصل) بين الشخصى والاجتماعى، والقول والفعل، والعقل والعاطفة، والكمى والكيفى... وكانت (الثمرة) هى إهمال بناء (الإنسان)... مع أن بناء (الإنسان) هو (الف باء) حضارة وتقدم...!!

فى مسجد الرسول فى المدينة، وفى المسجد الحرام فى مكة، وفى سائر (الجوامع) التى انتشرت خلال القرون المتتالية كان (المتخرج)



والفائز (بحق الرواية) (الذى يزعم البعض أنه الأصل لكلمة بكالوريوس) يخرج إلى الدنيا كائناً إنسانياً مختلفاً عن الكائن الجديد الذى تخرجه الجامعات المعاصرة فى العالم الإسلامى...

كان خريج هذه الجامعات يخرج بشعور من المسؤولية يحس معه أنه ممثل لعقيدة عظيمة وأمة ذات رسالة عالمية (حتى ولو كانت أمته فى مرحلة انهزام سياسى - وإلا فكيف تغلب العلماء على التتار المنتصرين)، وكان يشعر بأن وراءه ماضياً متألّفاً وأنه أصبح صالحاً لتمثيله وإقامة الجسور بينه وبين المستقبل... وكان يشعر بأن عليه أن يبدأ بدفع الثمن لأمته التى وفرت له وسائل التربية، ولدينه الذى أشعره بوجوده وإنسانيته، وحدد له مهمته فى التاريخ... وكانت الأهداف اليومية لا تستنزفه، إما لدينه وثقته فى ربه، وإما لأن أمته - من جانبها - كانت توفر له ظروف الإبداع والانطلاق.

أما خريج الجامعات فى عصرنا - فتبدأ رحلته مع (الضرورات) اليومية بعد تخرجه، وهو يحس بأن نبوغه يجب أن يستخر فى سبيل تحقيق هذه الضرورات، ويشعر - كذلك - بأن على أمته أن تبدأ فى تيسير ما يليق به مكانة ورفاها... وهكذا يأخذ الحقوق مرتين مرة قبل تخرجه ومرة بعدها... وتنزوى (الواجبات) فى مكان ضيق من شعوره وسلوكه لا يكاد يرى... وينزوى مع انزوائها الإحساس بالمسئولية.. وغالباً ما تخدم أيضاً جذوة الحرارة الإيمانية التى تكاد تصنعها (الجوامع) ويتألف الجانب المهنى الجدلى العقلى الذى يبرز ذاته كذات متكلمة لا كذات بناءة فاعلة...

كان الإنسان يصنع فى (الجوامع) بالسيرة والسنة القولية والعملية وبالفكر الهادف الطموح وبالعلم المستأهل لصفة (العبادة العظمى)، وبالجهد العقلى والوجدانى عبر مجالات المجتمع والكون، وبالثقافة

الإسلامية الشاملة القوية.. أما الإنسان الذي يتعلم ويحصل على مؤهل من معظم (الجامعات) في عصور التخلف فهو الإنسان الذي درس - بحق أمشاجاً من الآداب والفنون أو الطب أو الهندسة أو الرياضيات.. لقد درس بعض منتوجات الحضارة وبعض إنجازاتها... وأكل من بعض طبيختها وقطف بعض ثمار أشجارها.

لكن إنسان (الجوامع) إنسان الفكر الإسلامي المؤمن - كان الإنسان الذي تنصهر في أحشائه الحقائق ممتزجة بحرارة الإيمان والأهداف الأخلاقية العليا. فهو يمثل البنية العميقة التي تصنع الحضارة وتفرضها وتتبادل مع مجتمعها المتحضر النähr والتأثير والأخذ والعطاء...

إن الحضارة التي مثلها إنسان (الجوامع) كانت تفهم مسيرة التقدم على أنها (فكر) ينتهي إلى وعى وعلم ومسئولية تجاه الحضارة الإنسانية... أما إنسان الجامعات الحديثة فيفهم الحضارة على أنها (معلومات) قد تنتهي إلى هدف وقد لا تنتهي...

وكانت الجوامع مفتوحة ليومها كل الناس - إن أرادوا أو ثابروا - وبالتالي كانت تخرج عقولا ورجالا يتمتعون بقدر من (الثقافة) سواء واصلوا المسيرة أو انطلقوا في مجالات أخرى مزودين بما حصلوه.. أما الجامعات فتخرج (فئة) قد تنعزل عن الناس مدرعة بمؤهلاتها في برجها العاجي أو قد تلتحم بالناس في (المعلومات) المتخصصة التي استظهرتها، ولا إطار لديها للعمل الحضاري والثقافي الشامل الذي يقود إلى الانسجام ودقة الإيقاع والانطلاق، إن إنسان الجامعات لابد أن يعانق إنسان الجامع من جديد، ولا بد أن يربى على الكيفية الدقيقة التي يجب أن يتعامل مع الدنيا على أساسها، ولا بد أن تلتحم الآخرة بالدنيا وتتحرك الدنيا في أعماقه نحو غايتها العليا... أي تعمير الكون باسم

الله والله، حتى تنحو أفكارهم إلى سبيل المحافظة عليها، ثم إلى سبيل استخدامها لتحقيق المبادئ والقيم العليا (١) . . . لا بد أن يربى هؤلاء المسلمون على دراية دقيقة بقيمة الحياة التي تخفق بين جوانحهم، والعاقبة التي سيؤولون إليها بعد موتهم، حتى يعلموا جيدا متى يستهينون بحياتهم ويضحون بها، ومتى يتشبثون بها ويحافظون عليها، دون أن يعوقهم عن تنفيذ ذلك أى عائق.

إن هذا يعنى أن مفتاح النهضة العلمية والصناعية والانطلاقة الحضارية، لا يتمثل فى علوم التكنولوجيا والمشاريع - فهذه نتيجة وليست سببا - بل ربما تغدو هذه الأسباب أعباء وأثقالا على كواهل أصحابها، إن لم تنهض بدورها على قاعدة راسخة من المعارف الإنسانية الرشيدة لا تكتفى بالتغلغل فى طوايا الفكر والعقل، بل تتجاوزها إلى أعماق النفس والوجدان، ذلك لأن الوعيين العلمى والتربوى هو الذى يحرك المصانع فى طرقها الصحيحة ويدفع الجهود التقنية إلى النتائج المرضية، ويحرس النشاطات الاقتصادية المختلفة ألا تنحرف إلى سبل الخيانة والغلول (٢) . . . وإلا فمآل المعاهد والجامعات التقنية - وهى فى شرقنا الإسلامى كثيرة - لا تغنى عن أصحابها ولا عن الأمة شيئا؟ وما بال أولئك الذين أتخموا بعلومها لا تستفيد الأمة منهم شيئا؟ بل إن الأمة لا تفيدهم بدورها - فى كثير من الأحيان - حتى بمقومات الحياة الإنسانية الكريمة؟ . . . وما بال معظم هذه الأدمغة العلمية التقنية تهاجر من أوطانها، إلى حيث تنتجع لنفسها لقمة عيش هنيئة (٣) . . .؟

(١) بتصرف من د/محمد سعيد رمضان البوطى: منهج الحضارة الإنسانية ص ١٩٨ - دار الفكر .

(٢) المرجع السابق ص ١٩٩ ط ١ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٠١ .



إن الثقافة بمعناها الإسلامى الشامل يجب أن تتبوأ مكانتها فى تربية الإنسان عبر الجامعات والمعاهد العلمية . . . ويجب أن يكون واضحاً أن السلوك الاجتماعى للفرد خاضع لأشياء أعم من المعرفة وأوثق صلة بالشخصية منه بجمع (المعلومات) . . . وهذا الشيء الشامل الأعم من المعرفة هو (الثقافة) . . . أى بتعبير آخر - مجموعة الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التى يتلقاها الفرد منذ ولادته كراسمال أساسى فى الوسط الذى ولد فيه . . . فالثقافة - بهذا - هى المحيط الذى يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته (١) عن طريق (فلسفة الجماعة) و (فلسفة الإنسان) أى معطيات الجماعة والفرد اللذين يجب أن ينسجما فى كيان واحد (٢) .

إن (الحرفية فى التعليم) . بتعبير العلامة مالك بن نبي - يجب أن تتوارى من الجامعات الإسلامية - أى جامعات العالم الإسلامى - ويجب أن تحل محلها الوظيفة الحضارية للثقافة . . . أى صناعة إنسان - من خلال إطار ثقافى منسجم - يتدخل فى سائر أبنية المجتمع، وينفى منها ما يجب أن ينفى، ويؤكد ما يحتاج إلى تأكيد، ويتفاعل معها كما تتفاعل الروح مع الجسد .

إننا - من كل هذا - لاندعو إلى أن يفرض أسلوب (الجامع) على أسلوب (الجامعة) فنحن نعرف - بداهة - أن العلوم العصرية تعقدت وأصبحت تحتاج إلى معامل وحقول تجريبية ومكتبات هائلة . . . لكننا ندعو إلى أن تكون الروح المسيطرة على الجامعة - تطبيقية كانت أو نظرية - هى روح الجامع . . . وفى الإسلام . . . كلها علوم واجبة -

(١) مالك بن نبي: شروط النهضة ومشكلات الحضارة ص ١٢٥، ١٢٦ طبع دار الفكر - الطبعة الثالثة .

(٢) المرحع السادق - المكان نفسه .



مادامت نافعة - وهى تتأرجح بين فرض العين والكفاية... إننا نريد لعلم الجامعة أن تبقى له روحه العلوية ووشائجه الأخلاقية وأهدافه الإنسانية... إن على الجامع والجامعة أن يتطورا معامستندين إلى فكرة الإسلام (١) - علماً وإيماناً - وبرامج وأهدافاً، وفى الوقت نفسه يتطور التعليم الإسلامى فى المناهج والمحتويات وطريقة الاستيعاب والاختبار، ووضع الشخصية والسلوك فى الاعتبار التقويمى، والربط بين الجامعة والجامع والمجتمع... فقد انفصل الجميع فى فترات كثيرة، كما انفصلت الدراسة فى الجامع والجامعة عن مشكلات الناس وعكفت على مشكلات الماضى البائدة... والحلول البائدة للمشكلات البائدة (!!).

إننا لا ندعو - كذلك - إلى رفض التخصص... لكننا ندعو إلى أن يكون التخصص موضوعاً فى وعاء الثقافة الشاملة، وإلى أن يكون المتخصص أهلاً لخدمة الحياة وليس عالة - ومستعلياً - على الحياة. وهكذا - فى سياق واحد - نريد إنساناً جديداً بتكوين جديد نستطيع أن نطلق عليه: إنسان الجامع والجامعة !!.

### تكنولوجيا الإنسان الجديد

إن أمام جامعاتنا فرصة حضارية نادرة... فمن البدهى أن سباق جامعاتنا مع الجامعات الأمريكية والأوروبية فى مجال التكنولوجيا هو سباق معروف النتائج. وبالنسبة لوضعنا الحضارى، فإن أى تقدم تكنولوجى هو تقدم مطلوب، بل إن علينا أن نقفز - لو استطعنا -

(١) انظر بتصريف د/ حسان محمد حسان: وسائل مقاومة الغزو الفكرى للعالم الإسلامى ص ١٦٦ نشر رابطة العالم الإسلامى مكة المكرمة.

أضعاف ما يقفزون حتى نصل إلى بعض ما وصلوا إليه... لكن جامعاتنا تستطيع مع ذلك أن تقدم تقنية متميزة وتكنولوجيا موجهة إنسانيا... وفى هذا المجال فإن الحضارة الغربية لن تسعى لمنافستنا...؛ لأنها قد انتهت منذ مدة طويلة من مصطلح (التوجيه الإنسانى) - بل إنها لم تعد قادرة - حتى لو أرادت - على التحكم فى مسار التكنولوجيا... لقد أصبحت التكنولوجيا هى العربة التى تقود الحصان، فإن الإنسان- لسوء الحظ- قد طور قوى تكنولوجيا جديدة قبل أن يعرف كيف يستخدمها بحكمة، بل أكثر من ذلك هناك دلائل كثيرة على أن نواحى تكنولوجيا بأكملها بدأت تخرج من مجال سيطرة الإنسان<sup>(١)</sup>.

وما دام قد سمح للتكنولوجيا بالنمو دون مراقبة مناسبة، فقد تصبح قوة مخربة تؤثر على العلاقات الدقيقة التى بنيت عليها المدنيات فى الماضى، وكما تنبأ الكاتب الانجليزى (أ.م. فورستر) فى كتابه (توقف الآلة): «ستسير التكنولوجيا قدما... ولكن ليس على خطوطنا التى رسمناها لها، وستتقدم ولكن ليس نحو أهدافنا».

وأكثر المسائل التى تثيرها التكنولوجيا - أساساً - اجتماعية سياسية اقتصادية أكثر مما هى علمية فى طبيعتها، أضف إلى ذلك أن التكنولوجيا غير قادرة - نظرياً - على التهرب من الرقابة البشرية إلا أنها فى الواقع تسير فى طريق مستقل، لسبب بسيط، هو أن مجتمعاتنا لم تصنع بعد توجيهات وضوابط للتحكم بها بالأسلوب الفعال المناسب.

وكل المجتمعات المتأثرة بمدينة الغرب تتبع (توراة التنمية) كعقيدة، وتدور فى دائرة تشبه (حلقات ذكر الدراويش) وتقول هذه (التوراة): (أنتجوا أكثر لكى تستهلكوا أكثر ثم لكى تنتجوا أكثر).

(١) انظر ريبه دوى: إنسانية الإنسان ص ٢٢٨ ترجمة الدكتور نبيل صبحى الطويل - الطبعة الأولى مؤسسة الرسالة، بيروت.

ولا يحتاج الإنسان أن يكون عالم اجتماع حتى يدرك أن هذه هى فلسفة مريضة... مجنونة. فلن يستطيع تسارع النمو الاستمرار طويلا، فضلا عن الاستمرار الدائم إلى ما لا نهاية. والواقع أن هذا النمو قد يتوقف فى فترة أقصر مما يتوقعه الوعى النامى بين جمهور المثقفين، والذي يعتقد أن النمو التكنولوجى بدون ضوابط يضر بصفات (الكيف) لحياة الإنسان.

وفى حديث بعنوان: (هل تستطيع أمريكا التغلب على خرافة النمو؟) كان سكرتير وزارة الداخلية (ستيوارت.ل. أودال) شجاعا عندما قال: إنه ( من السهل اعتبار أمريكا التى صنعها الإنسان... كارثة على مستوى القارة). لقد ذكر (أودال) مستمعيه: (إننا نملك أكبر عدد من السيارات وأسوأ ساحات الخردة، بالمقارنة بأية دولة أخرى فى العالم نحن أكثر سكان العالم تنقلا ونتحمل أكبر قدر من الازدحام ونولد أكبر قدر من الطاقة، وفى أجوائنا أكثر الهواء تلوثا فى العالم). ولقد نقل عن رئيس بلدية (كليفلند) قوله مازحاً: (إذا لم نكن واعين فسيذكرنا التاريخ على أساس أننا الجيل الذى رفع إنسانا إلى القمر... بينما هو غائص إلى ركبتيه فى الأوحال والقاذورات)(١).

ففى إمكان جامعاتنا أن تركز على التكنولوجيا الزراعية - مثلا - حتى توفر القمح الذى تستطيع به شعوب كثيرة أن ترفع رأسها أمام تحكم القمح الأمريكى فى رقابها... وعندنا عدد من مئات الملايين من الأفدنة الزراعية فى العالم الثالث تنتظر منا هذا النوع من التقدم التكنولوجى.

وهناك تكنولوجيا حفر الابار لإغاثة شعوب تنكب بالجفاف، وهناك

(١) رينيه دوبو: إنسانية الإنسان: تعريب نبيل صبحى: ص ٢٢٩.

تكنولوجيا مكافحة الأمراض المستوطنة والبيئة، وصناعة وسائل الاتصال برية وجوية وبحرية... وتعليب الأسماك (وهو عمل نافع جدا وميسور)(١) وصناعة الأسلحة التقليدية... والغزل والنسيج...

إن ما تتكلفه بضع عمليات من عمليات زراعة القلب يكفى لتوفير أساليب الحياة لعدد من الملايين فى قارة أفريقيا...

وإن ما يتكلفه المكوك الفضائى الأمريكى الفاشل (التحدى) - وهو مبلغ مليار ومائتى مليون دولار - يكفى لمنع الجفاف عن أفريقيا كلها إذا ما استثمر فى توفير المياه واستصلاح الأراضى وبناء مساكن للمواطنين هناك.

وبالتالى تستطيع - جامعاتنا الإسلامية - أن تقوم بعملية انتقاء وترشيد تكنولوجيايين، ونمد أيدينا - باسم الإسلام - إلى شعوب كثيرة تعاني من حرب القمح والدولار والتنصير فى جانب، والتلويح بعدالة اجتماعية مادية وهمية فى جانب آخر... وبالإضافة إلى أننا سنقدم تكنولوجيا يقودها الإنسان، ويمشى فيها الحصان أمام العربة، ويرتفع فيها جسم الانسان إلى القمر، وترتفع روحه - فى الوقت نفسه - إلى السماء.

### الوعى بالذات:

إن من الصعب إبداع حضارة واحدة ذات نسيج واحد بذوات متنافرة

(١) انظر حول تعليب الأسماك: التربية فى اليابان (يو شامب) مكتب التربية العربى لدول الخليج ص ١٢، ١٣



لا تجمعها روح مناسبة واحدة... وإنه مهما اختلفت الإيقاعات فى الحضارة، فيجب أن يكون الإيقاع الأقوى هو الإيقاع الذاتى الذى يمثل الروح العامة للأمة.

والتاريخ البشرى - على طوله - يتكون من شريحتين: شريحة تميزت وصنعت حضارة نسبت إليها وأخذت بها موقعا من التاريخ، وشريحة مرت بالتاريخ، كما تمر شتى الموجات الساكنة فى الكون، فهى تابعة لأية ذات، وهى مؤهلة لعبور قنطرة الحياة تحت أى مظلة وبأى لون، وهى مطية للزمان والمكان، يشكلانها كيفما اتفق، وليس الزمان والمكان مطية لها تشكلهما هى وفق ذاتها، وبوعيتها وإرادتها...

والموجات الحضارية الكبرى فى التاريخ، تلك التى لم يبق صالحا للرصد والدراسة منها غير عدد محدود يحصره (أرنولد توينبى) فى إحدى وعشرين حضارة.. هذه الموجات هى ما بقى متميزا وذا ملامح مستقلة فى موكب التاريخ الطويل.

وتحدد الأمة - أية أمة - انتماءها لأية شريحة من الشريحتين منذ البداية... أى فى مرحلة التكون والانطلاق.

ولندع الشريحة الثانية التى تمضى بلا معنى فى التاريخ، فهذه لا تحتاج إلى وقفة، ومسيرتها شبيهة بكل الكائنات التى تنتمى إلى عالم الغريزة... فهى توجه خطواتها إلى الدروب التى تحقق بها غرائزها البطنية والجنسية والفوضوية والاستعلاء الفردى الكذوب...

أما الشريحة التى تعنينا فهى شريحة صانعى الحضارة الذين يتميزون بذات خاصة، والذين تركوا بصماتهم على الزمان والمكان... هذه الشريحة - صانعة الحضارة - هى التى انطلقت وفق فقه خاص للحضارة، واشتبكت مع الزمان والمكان فى معركة إثبات الذات... فهى

تستثمر كل ثانية من الوقت، وهى تسخر كل ذرة من الأرض، وهى تصارع الزمان والمكان بسلاحين قويين: سلاح الروح وسلاح العقل ... ولروحها وعقلها فقه معين تجاه الكون والتاريخ الأكبر والمجتمع الأصغر. ولا يعنى هذا أن هذه الشريحة المسلحة بالروح والعقل مجردة من الغريزة... بل جوهر القضية هو:

### لمن حق القيادة ؟

فعندما تقود الروح والعقل يفرضان على الغريزة وجوداً موجهاً منظماً... وعندما تقود الغريزة تكسح الروح والعقل من طريقها بأسلوب ثورى عنيف !!

والتحدى الذى يواجهه أية مسيرة حضارية هو تحديد مسئولية (القيادة لمن؟) وإزاحة الحواجز التى تحول دون بروز القيادة المختارة...

وهنا نجد أنفسنا أمام المسئولية المباشرة للجامعات ومراكز الأبحاث والمساجد والمواقع المختلفة للتأثير من مدارس ومعاهد ووسائل إعلام...

ويتحدد الإطار الذى يتحرك فيه كل هؤلاء نحو الهدف الأسمى، وهو تولية القيادة لصاحبها وفق العناصر الأساسية المكونة (للذات) تلك التى تحددها الأمة من خلال مسيرتها فى الزمان، ومن خلال القيم الإنسانية والرؤى الكونية المزروعة فى المكان...

وبالنسبة لنا - نحن المسلمين - فإننا إذا اتجهنا إلى المكان والزمان للبحث عن ذاتنا، فإننا لن نجد إلا الحضارة الإسلامية، هى التى وضعت بذورنا منذ خمسة عشر قرناً، واقتلعت كل الأعشاب الضارة التى تهدد بذورنا منذ خمسة عشر قرناً، وأبقت من القديم كل ما كان فيه

صالحاً...

وأذكر أنى كتبت شيئاً ما منذ عدد من السنوات نشر فى مجلة سعودية<sup>(١)</sup> أقول فيه لمن يسألنى عن (عمري): إن عمري خمسة عشر قرناً... إننى أبدأ لم أحس وأنا أتعامل مع الحياة أننى ابن خمسين عاماً... بل إننى لأشعر بأن شجرتى وشجرة كل مسلم... تمتد جذورها فى أعماق مكة والمدينة ودمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة وبجاية والقيروان... منذ تلك السنة الفاصلة فى الزمان.. سنة نزول القرآن، وبروز المنعطف الجديد فى التاريخ: العصر القرآنى.

إن أركان ذاتنا تحددها هذه القرون عبر التفاعل الذى تم بين القيم القرآنية والصياغة القرآنية للحياة، وبين التطبيق البشرى -- عبر مراحل تاريخية تواصل فيها التاريخ تواصل الكائن الحى فى وجداننا، وعبر أطر جغرافية وبيئية مختلفة... وهكذا فالتاريخ الحى جزء من ذاتنا لا ينفصل عنها.. ونحن امتداد لقيم تاريخية وضعها رجال.. نحس بقرابة شديدة بيننا وبينهم.

إن العقيدة الإيجابية جزء من ذاتنا... فجدورنا تشهد بأن عنصر الإيمان أصيل فى ذاتنا الشرقية الإسلامية<sup>(٢)</sup>... إننا - دائماً - فى رؤانا الكونية كنا ننطلق من الإيمان... ولو أننا حافظنا معه على (العقل) لكان لمسارنا التاريخى تطور آخر. وفى تاريخنا كان النصر والهزيمة مرتبطين بالإيمان وعدمه... فحالة وجود التوجيه الإيمانى الملتحم بالعمل والحركة هى حالة النصر... وليس عصر النبوة، ولا

(١) مجلة التضامن الإسلامى (مكة).

(٢) انظر هذا البحث القيم للدكتور حامد بدر. حول دور الدين الإسلامى فى نظام دوافع وحوافز العمل لأعضاء هيئة التدريس (مجلة العلوم الاجتماعية) العدد ٤ مجلد ١٣ - الكويت

عصر الراشدين - فقط - هو ما يعطينا هذا المؤشر.. فظهور كل تيار نصر مرتبط - دوماً - بوجود (العز بن عبد السلام - أو - المنذر بن سعيد البلوطي - أو عبد الله بن ياسين - أو أسامة بن المنقذ - أو رجاء بن حيوة - أو أسد بن الفرات (القائد الفقيه) أو ابن تيمية - أو محمد بن عبد الوهاب - أو عبد الحميد بن باديس...) هؤلاء الذين كانوا يعطون لقضية التغيير روحها التي تنتصر بها.

والعقيدة الإيمانية روح تنساب - ويجب أن تنساب - في كل ما يتصل بذاتنا فكراً كان الأمر أو عادات أو تقاليد.. فلسفة أو اجتماعاً أو اقتصاداً... شريطة أن يكون الإيمان الإيجابي وليس الصوفي السكوني.

والوسطية والتكاملية بين العناصر يمثلان عنصراً - أيضاً - من عناصر ذاتنا... فنحن أمة لم تحب الطغيان يوماً... لابين المادة أو الروح، ولا بين المرأة أو الرجل، ولا بين الفرد والمجتمع. بل من أخص خصائصنا - الذاتية - الرغبة في تجنب الإفراط والتفريط، ومحاولة التوفيق بين العناصر.. ولعلنا الأمة الوحيدة التي حافظت على وفاق عجيب بين العلم والإيمان في تاريخها. ومع تطور العلوم تطوراً مذهلاً فإنها لم تجد نفسها بحاجة إلى فلسفة إلحادية أو مادية للمعاصرة، بل رأت في الإيمان أفضل وسيلة للتحديث ولضبط الوسطية في التحديث نفسه، ولبقاء التكنولوجيا تحت الهيمنة الإنسانية.

إن لكون (العلماء ورثة الأنبياء) في حضارتنا معنى عظيماً لم نقف عنده.. فهذه التبادلية والتكاملية بين الوحي والعقل هو أمر جديد في التاريخ... وهو إحدى هدايا الحضارة الإسلامية للإنسان، وهو جزء من ذاتنا الإسلامية التي تشعر بتأزر كامل بين الوحي السليم والفطرة



السليمة .

وذاتنا .. ذات متفتحة .. فنحن دائما نقع فى مناطق تشتبك مع حضارات العالم وطرقه الرئيسة ... وديننا «رحمة للعالمين» وللناس كافة ... ونحن فيه مثل كل الناس .. لسنا شعبا مختاراً إلا فى حدود قيامنا بالرسالة والأمانة .. ولو حملها غيرنا لكان أفضل منا «إن أكرمكم عند الله أتقاكم» ... وهكذا فنحن ذات بلا عقد، وليست لنا قضايا حقد مع العالم، بل من طبيعتنا التسامح ... وندين العنصرية بكل معانيها الإنسانية والقانونية ...

وبالتالى فليس لنا - كمسلمين - فلسفة قومية تجاه الإنسانية، ولاحتى فلسفة طبقية (بالمعنى الطبقي الجدلى) ... ولسنا نملك قيماً تعطينا (استعلاء عنصرياً) ... ومن الغباء أن يحاول بعضهم دعوتنا إلى الانفتاح - أو الإنسانية - طريقاً خادعاً تقتل ذاتنا والذوبان فى الآخرين ... أى فى الشريحة التى لا معنى لها فى التاريخ إلا المعنى الغريزى .. كلا ... فنحن أمة متميزة ... ولنا ذاتنا التى نؤصلها ... ونوجهها لخدمة الإنسان ودعوته إلى الحق ... وإن كنا - فى نفس الوقت - حريصين على أن لا نذبح (ذاتنا) من أجل ذوات أخرى تموء علينا بكلمات الإنسانية والانفتاح والعالمية ... وهى أشد ما تكون (عبادة) لذاتها، وقتلا لذوات الآخرين بكل ما تستطيع من أسلحة، ومن أبرز أسلحتها هذه الدعوة الكاذبة للإنسانية والعالمية - وليست الإنسانية والعالمية فى رأيهم ... إلا (ذاتهم) العنصرية .

\* \* \*

وفى الطريق لتحديد معالم الذات الحضارية للإنسان المسلم قد نجد معالم أخرى .. لكن المهم - هنا - أن تأصيل هذه المعالم وغرسها، وصياغتها صياغة علمية تاريخية، والانطلاق منها نحو إقامة منهج

حضارى مستقبلى يقوم على كتابنا الكريم وسنة نبينا اللذين آمنا -  
بحق - بضرورتهما لوجودنا - هذا التأصيل العلمى (لذاتنا)  
و(لرسالتنا) ... هذا الانطلاق وهذه الصياغة واجب أساسى من  
واجبات المؤسسات العلمية العليا، وهو واحد من أفضل ما يمكن أن  
تقدمه هذه المؤسسات للإنسان المسلم، ولاسيما فى هذه المرحلة الضبابية  
من تاريخنا .

### الثقافة الإسلامية والانتماء الحضارى :

حين نعالج قضية من القضايا يجب أن نقوم - ابتداء - بتحليل  
مفردات القضية، ثم نعيد - بعد اجراء الفحوص الواعية لتلك المفردات  
- بناء هذه المفردات - مرة ثانية - فى عملية تركيب كلى ..  
وفى ضوء التصور المحدد للمفردات الاصطلاحية وحدود كل  
مصطلح، ثم فى ضوء المضمون الكلى للقضية بعد إعادة بنائها -  
نستطيع أن نمضى فى معالجة القضية، ونحن مسلحون بفهم محدد،  
وبمصطلحات واضحة فى وعينا، وقدرة على التعامل الواضح المحدد مع  
الاخرين الذين نتجه اليهم بالحديث ...  
ومصطلح (أساليب) - مثلاً - (ومفردة أسلوب) يعنى - دون  
اللجوء إلى كتب اللغة - الطرائق التى يمكن أن تتبع فى التعبير عن  
الأفكار، ومع أن الفكرة قد تكون واحدة إلا أن الأساليب قد تختلف من  
شخص لآخر فى التعبير عنها.. والأسلوب وثيق الصلة بالشخصية  
الفردية وبقدراتها الخاصة وبخلفياتها الثقافية، كما أنه وثيق الصلة -  
بدرجة عامة - بالمصطلحات الأساسية الشائعة فى القضية المعالجة وهى  
مصطلحات مهنية تتصل بالبنية الأساسية للقضية، ولايمكن لأى باحث  
تجاوزها، وإن أمكن - بالطبع - توجيهها ...  
وفى موضوع كموضوع (نشر الثقافة الإسلامية) - بصفة إجمالية

- ونشرها بين الشباب - بصفة خاصة سوف نجد أن ثمة قاموسا محددا لا بد أن نتعامل معه ... وهذا القاموس يتصل ببيئة الثقافة الإسلامية ومصادر أساسياتها الفكرية والتطبيقية (إذ الثقافة الإسلامية فى مفهومنا تنظير وحركة فعل حضارية) وقد نجد هذا القاموس مشتركا بدرجة كبيرة بين دارسى قضايا الثقافة الإسلامية، بدءا من حدود الانتماء - بالأصل - على مستوى سيد قطب (رحمه الله) وسعيد رمضان البوطى والشيخ محمد الغزالي ويوسف القرضاوى - مثلا - وحتى حدود الانتماء الطارىء عن رضا واقتناع مع تضاد الخلفية الثقافية ... كما فى مثال محمد أسد (ليوبولد فايس) ...

أما فى حالة عدم الانتماء، أو اللجوء إلى قواعد انطلاق ثقافية ليست إسلامية أو أصيلة، بل مزيفة ومحاربة للثقافة الإسلامية فإننا نجد قاموسا آخر مليئا بالضبابيات والكلمات الزئبقية والتعبيرات الكبيرة التى تخفى مضمونا هزيلا منكرا لم يجزؤ صاحبه على الإعلان - بصراحة - عنه ...

وكنموذج لهذا القاموس اللامنتمى والمنحرف - مهما ادعى أصحابه من دعاوى خداعية - قاموس أمثال: محمد أركون وهشام الجعيط وعبدالله العروى ومحمد عابد الجابرى، وأمثالهم .. من الذين ينطلقون من قواعد ثقافية تنتمى إلى خندق الخصوم وإلى طبيعة مناهجهم ورؤاهم وقواميسهم .. وتزيد هذه المدرسة فى الضلال والمراوغة، فتزعم أنها - لمجرد أنها ولدت فى بلاد إسلامية أو أنها تحمل أسماء إسلامية - تنطلق من قواعد الثقافة الإسلامية، وأنها تعتمد - وهى جد غير صادقة - على مصادر هذه الثقافة وقواعد انطلاقها العقديّة والتراثية.

إن القاموسين المستعملين على هذين المحورين مختلفان تماما، من حيث التعبير عن الشخصية، والخلفية النفسية والعقدية، وروح

الانتماء ، ومستوى الوضوح والصراحة والمواجهة ، فضلا عن عبق التراث ورائحة الثقافة اللذين يمثلان طعما خاصا لكل حضارة .

إن مصطلح (أسلوب) ليس مفاهيم مبعثرة أو مصطلحات خاصة قد تفرض نفسها - بدرجة كبيرة على المشتركين في موضوع واحد ، مثلما للاجتماعيين مصطلحات وللنفسيين مصطلحات وللجغرافيين مصطلحات ... كالا ، فالأسلوب - بعد هذا المستوى المشترك - هو تعبير - بدرجة أعمق - عن كوامن النفس ، وهو إنما سمي أسلوبا من (سلب) ، لأن صاحب هذا الأسلوب قد استطاع أن يستلب من نفسه كوامن سرها ، فلقد كانت النفس منطوية على خبيء من جوهرها فجاء صاحب تلك النفس فانتزع من نفسه سرها ، ونشره أمام الناس (١) ...

والخطورة ليست على مستوى الفرد - مع وجودها - وإنما الأخطر هو الأسلوب على مستوى الثقافة أو الحضارة ، فلكل ثقافة أسلوبها ، وكذلك لكل حضارة طعم أسلوبى خاص ، وركائز تمتد إلى الأعماق متجاوزة الموجات المتلاحقة ومنتصرة على بصمات الاحتكاك الثقافى!!

«وقد يتعدد النتاج الحضارى والثقافى عند أمة عريقة كالأمة العربية ، لكن الناقد البصير يستطيع أن يلتمس خلال ذلك التعدد والتنوع خيطا رابطا (...) هو أسلوب الأمة فى فاعليتها العقلية والوجدانية» (٢)

(١) زكى نجيب محمود: أفكار ومواقف ص ٢٢٦ - دار الشروق بمصر - ط١ أولى ١٩٨٣

(٢) المرجع السابق ص ٢٢٧



والثقافة الإسلامية (سواء ترادفت مع العربية عند بعضهم أو شملتها) هي شخصية وهوية وتعبير حضارى لهذه الأمة، وليس من العقل أو المنهجية أن نصب هذه الثقافة فى وعاء نستورده لها محاولين الجمع بين الوضوح والغموض، والتجريد والصنمية والجمالية والنفعية، أو الخيرية والانية... ونساق بالتالى إلى غرس بذور ليست من طبيعة هذه الثقافة، متذرعين باسم الحداثة أو العصرية غير واعين بالحدود الثقافية الفاصلة، والتى تبعد عن أن تكون مجرد استعارة لفظية إلى أن تكون خلطا وترقيعا فى ملامح الشخصية، وإلى أن تكون مزجا بين نتف مبشرة من حضارات وثقافات متباينة.

إن الثقافة فى غاياتها - والثقافة الإسلامية من باب أولى - يجب أن تنتهى إلى تكوين وجدان خاص وموقف خاص ورؤية خاصة وسلوك خاص.. وبالتالى فإنه من الضرورى أن يدفعنا كل جزء فى هذه الثقافة - مضمونا أو أسلوبا - إلى تحقيق الوجدان الإسلامى والحس الإسلامى والموقف الإسلامى.

ولكى تصل الثقافة الإسلامية إلى هذه الغاية - فى ظل وضعها الحالى سواء على مستوى القضايا المطروحة أم أساليب العرض المستعملة - فإنها بحاجة ملحة - وهى تتجه إلى الشباب - إلى أن تقوم طرائق عرضها وأساليب التعبير عنها على المعاناة الثقافية العميقة والملتزمة، وعلى الركائز الفكرية والعقدية للثقافة الإسلامية، وعلى وعى موضوعى بأساليب الخصوم الحضاريين من مستشرقين ومستغربين... وإنه لمن الضرورى لكى نعرف الأهداف الخبيثة وراء أساليبهم الغامضة، ولكى نحسن الكشف عن السموم المبتوثة فى هذه الأساليب.. من الضرورى

- لتحقيق هذا وذاك وللقدررة على التعامل والمواجهة - أن نفهم أساليبهم ونعيها جيدا دون أن نترك لهذه الأساليب التي تخدعنا بشعارات سراقه - فرصة زعزعتنا من مواقعنا أو تجاوزنا للثوابت التي لا تقبل المساومة ...

فلكى ننجح فى (أسلوب نشر الثقافة بين المثقفين) يجب أن نعى خطورة الأسلوب وإطاره الحضارى المميز وصلته بالأهداف وارتكازه الجوهرى على المصادر الثابتة ... وهذه هى الشارة الأولى على الطريق الطويل .

### الثقافة الإسلامية والوعى بالتراث :

وقفنا وقفة مناسبة لإطار هذا البحث عند مصطلح (الأسلوب) .. ويقتضى المنهج أن نقف كذلك عند مصطلح (الثقافة الإسلامية) لنبين - بعيدا عن الشجرة اللغوية - جذور وامتدادات - فقها لهذا المصطلح ، ولصلته بالشباب ..

إن ما نعيه بالثقافة الإسلامية هو تلك المعارف والسبل التي من شأنها أن تصوغ الفرد والمجتمع -ولا سيما الشباب- صياغة إسلامية تسمح لهم بصياغة الواقع الذى يعيشونه وفق الرؤية الإسلامية للحياة ... إنها ليست مجرد مجموعة من المعلومات النظرية، بل هى - فى إطار أنها إسلامية - تحويل للواقع العقلى والوجدانى بطريقة تمكن من أن يكون العقل والوجدان قادرين على تكييف الواقع الخارجى تكييفاً إسلامياً ...

إنها أكبر تمهيد لكى يعيش الناس حياة إسلامية إذا ما نجحوا - من الناحية التشريعية - فى وضع شريعة الإسلام موضعها من التطبيق .

إنها العودة إلى الذات الإسلامية عقليا ووجدانيا، على مستوى الفرد والجماعة.. وهذه العودة تحتاج إلى جهاد ثقافي جماعي يقوم به رجال الثقافة الإسلامية.. مستغلين وسائل العصر التربوية والإعلامية.

إن الفرد المثقف الواحد في عزلته، قد يدرك ذات نفسه، لكننا إذا أردنا للأمة في مجموعها أن تدرك ذاتها، وتشعر بحقيقة نفسها، فلن يتحقق لنا ذلك إلا حين تنسب جهود المثقفين لتلقى في نقطة مشتركة، ولقد قيل إن هنالك جوانب ثلاثة للأمة النابضة عروقها بدم الحياة، وهي أن تشعر بذاتها أولا، وأن تعبر عن ذاتها تلك ثانيا، وأن تشعر هذه الذات بغيرها ثالثا، وإذا كان هذا هكذا، فليس ثمة أمة شهدها التاريخ، قد حققت هذه الجوانب الثلاثة، بأوضح مما حققت منها الأمة الإسلامية في ازدهارها الحضاري، فقد تصورت ذاتها أجلى ما يكون التصور، ثم عبرت عن ذاتها أقوى ما يكون التعبير، ومدت آفاقها لتصل إلى حضارات الآخرين، أوسع ما يكون الامتداد، ويبقى على الأمة الإسلامية في عصرنا الحاضر، أن تصنع صنيع أسلافها. (١)

وهذا - قريب تماما - مما أراه وظيفية للثقافة الإسلامية نحو الشباب في عصرنا الحديث..

إننا لايهمنا أن نقف هنا - كما نفعل في البحوث الأكاديمية - عند مصطلح الثقافة من ناحية صلته بالزراعة ومعناه اللغوي التقويمي والتهذيبي، ولا عند صلته بالمصطلحات ذات الاشتباك مثل المدنية والحضارة... فهذا لايهمنا هنا.. وإنما الذي يهمنا هو (الثقافة الإسلامية) كوظيفة حضارية إيجابية تعيد الفرد إلى ذاته من خلال جهاده ومساعدات المجتمع له، وتعيد الأمة إلى ذاتها من خلال جهاد

(١) زكي نجيب محمود: أفكار ومواقف ص ٦٥.



عام على مستوى الشعب والدولة والمؤسسات الخاصة والعامة وذلك بواسطة التربية والإعلام والكتاب والمسجد والجامعة والمدرسة وغيرها مما يطلق عليه (وسائل النشر) أو وسائل الإعلام والتربية.. وهذه هي الشارة الثانية على الطريق..

### الثقافة الإسلامية ومشكلة المصطلحات:

وفى مجال بحثنا ونحن نعالج قضية الثقافة الإسلامية ومشكلة المصطلحات يلزمنا أن لانستهين بقضية المصطلحات المنتمية الأصيلة المعبرة عن شخصيتنا وتراثنا، والقادرة على المواجهة لسيل المصطلحات التى يحاول غرسها فى تراثنا الثقافى الاتجاه المستغرب (اللامنتمى).

وليس معنى هذا أن ندور فى فلك مصطلحات إنشائية مكرورة فاقدة لإشعاعات التعبير الواعى عن مضامين ثقافتنا، فمثل هذه السهولة خطر فى الصراع الثقافى، وهى، حتى وإن كانت صحيحة، قد تؤدى إلى شىء من الامتهان لبعض المضامين الجيدة...

وعلى سبيل المثال فإن الإنسان المثقف ثقافة إسلامية قد استعمل كثيرا - وبإسراف - مصطلحات التوازنية والشمولية والتكاملية، والمزج بين الفردية والاجتماعية، والأصل الربانى. تعبيرا عن كثير من ركائز الثقافة الإسلامية أو خصائصها...

ولكن سبيل التكرار اللاواعى وغيرالمؤصل تأصيلا مقننا قد أفقد هذه المصطلحات (العظيمة بالتأكيد) كثيرا من إشعاعاتها العلمية..

أما عندما استعمل مفكر كبير مثل (محمد أسد) هذه المصطلحات فى كتابه الصغير العظيم (الإسلام على مفترق الطرق) فإنه قد احتفظ لها بقدر من الهيبة والتأثير والفاعلية...

كما أن مفكرا عملاقا آخر مثل مالك بن نبي قد طرح فى ساحة



الثقافة الإسلامية عددا من المصطلحات قدم بين يديها رصيда فكريا هائلا فبقيت - نتيجة هذا المنهج فى المعالجة - متأثرة منذ غرست فى أرض الثقافة الإسلامية .. ومازال تقنيه للفعل الحضارى الصاعد على أساس المعادلة التى ساقها ..

وهى: (الإنسان والتراب والزمان والمفاعل العقدى الحضارى)<sup>(١)</sup>... هذا التقنين مازال يبدو شجرة نامية باضطراد فى الذهنية الإسلامية منذ وضع مالك بن نبي بذرتها الطيبة.

ففى تصورنا أن الثقافة الإسلامية يجب أن تتخلص من كل ما يمكن أن يصم الثقافة الإسلامية بالإنشائية والأطر التعبيرية والتقليدية والأساليب التكرارية واصطلاحات المهنة والأساليب الاستظهارية والتعبيرات المجردة من الابتكار والابداع الشخصى والخالية من عناصر المعاناة والتفاعل والمعايشة ..

وجدير بالذكر أن الثقافة الإسلامية المعاصرة قد وقعت - فى مجال الصياغة - فى خطأ كبير حين اعتقدت - أو اعتقد المهتمون بها - أن عليهم أن يقدموا مجرد تنظير خارجى أو تبرير عقلى لبعض الأساسات المتصلة بالعقيدة أو الشريعة أو بالنظم الإسلامية، مع شىء من المعالجة المتحمسة لبعض التيارات الوافدة أو ما يسمى بالمذاهب الفكرية الوضعية وربما الأديان الأخرى ..

مع أن الثقافة الإسلامية أخطر وأشمل من ذلك بكثير... فليست الثقافة مجرد (رد فعل) أو تدريب على (المواجهة) بل هى أساسا (بناء عقل وفكر ووجدان ومنهج حياة وغرس انتماء حضارى محدد المعالم) ..

---

(١) انظر كتابه شروط النهضة ومشكلات الحضارة

وليس عمل الثقافة الإسلامية تلقين بعض المصطلحات التي قد لا تتضمنها المناهج المتخصصة، ففي المناهج المتخصصة التي تتعرض لها الثقافة الإسلامية أعماق أروع كثيرا مما تستطيع الثقافة الإسلامية معالجته بطريقتها الحالية.. ففي (العقيدة) عند دارسيها، وفي الاقتصاد الإسلامي عند المتخصصين فيه، وفي مقارنة الأديان.. وفي النظم السياسية والاجتماعية... في هذه كلها أعماق على مستوى التخصص أكثر عطاء من نطاق الثقافة الإسلامية.. وكان المأمول من الثقافة الإسلامية أن تحدد أهدافها بوضوح، ولو أنها فعلت ذلك لمرت - كأي علم - بكل صور المعاناة التي تمر بها مراحل الولادة الحقيقية، ولكانت - بالتالي - ستقدم صياغة أعمق، وستكون تعبيرا حقيقيا عن آلام الإنسان المثقف وهمومه وآلامه، وقد تنجح في أن تقدم له مساعدات كبيرة في مجال مواجهة الواقع، وفهمه، وأسلوب الحوار معه، ومنهج التغيير البناء الذي يلائم الواقع وينطلق من الأصول، ولربما تساعده - إجمالا - على تكوين الرؤية الإسلامية الشاملة العفوية التي تؤصل وجوده، وتجعله يحسن دون تكلف وبعد المرور بمراحل إفراز حقيقية وصحيحة - معالجة إشكالية إسلامية المعرفة كلها في مستوييها الإنساني الفكري والتطبيقي العملي..

إن الثقافة الإسلامية في هذه الحال سوف تكون (المقدمة) الصحيحة لكل العلوم التي يتعامل معها الإنسان المسلم نظرية كانت أو تطبيقية، وكذلك سوف تكون (الفلسفة) - أو الحكمة - التي تلخص غايات كل علم وحدوده.. كما أنها في نهاية هذا الشوط - سوف تكون العين الناقدة القادرة على التمييز بين ما هو إسلامي حقيقي، وبين ما هو إسلامي بطريقة مبتسرة ومتكلفة، وبين ما هو مزيف مغشوش (في المضمون والمصطلح) حتى ولو زعم صاحبه أنه إسلامي..

ومن المؤسف فإن الافتقار إلى المعاناة (على نحو ما عانى مالك بن نبي ومحمد أسد وسيد قطب مثلاً) أصاب الثقافة الإسلامية بالسهولة الاصطلاحية والتكرارية الإنشائية وحصرها في دوائر مغلقة ... وهو ما يجب أن يزول حتى نستعيد ثقة الإنسان المسلم في الثقافة الإسلامية وأهميتها، وهذه هي الشارة الثالثة على الطريق الطويل.

### الثقافة الإسلامية ومشكلة المضمون :

إن مساحة المضمون تتحرك ببطء في كثير من العلوم، وقد تكون ثابتة في بعضها.. بيد أن المضمون في الثقافة الإسلامية وهو ما يسمى بمفردات المنهج أو بالقضايا المطروحة يجب أن يتميز بسرعة الحركة والتغير.. كما أن مساحة كل قضية وأسلوب عرضها ... ومفرداتها الداخلية - يجب أن تتحرك من عصر إلى عصر، ومن عام إلى عام حسب الأولويات - والتحديات المطروحة - فإذا كانت قضية التفرقة العنصرية أو قوانين الجنسية أو حقوق الإنسان مطروحة بالحاح على المستوى العالمي - في فترة ما - فيجب أن توليها الثقافة الإسلامية أهمية ملائمة، وإذا تغير الهم أو الاهتمام - وأصبحت العلمانية أو التنصير بمستوييه (تنصير الإسلام وتنصير المسلمين) أو الماركسية في مستوياتها المختلفة - هي التحديات المطروحة فيجب أن تستنفر الثقافة الإسلامية رجالها للوقوف ضد هذه الغارة الجديدة، دون أن يؤثر هذا التكيف مع التحديات على مستوى الأساسيات الثابتة التي تطرحها الثقافة الإسلامية، وهي الأساسيات المتصلة ببناء الإنسان المسلم وتفقيبه بالإسلام فقها يدخل (الفقه التشريعي) جزءاً منه وبناء وجدانه وإحساسه الإسلاميين.

وفى ضوء هذا يتجلى لنا أن ثمة محورين -- من ناحية المضمون -- تدور فيهما الثقافة الإسلامية أكاديمية أو عامة: -

**المحور الأول:** وهو محور الثوابت: أى بناء الذات المسلمة وتأسيس نظرتها للكون والحياة والإنسان من خلال منظور إسلامى شمولى .

**والمحور الثانى:** هو محور القضايا المتحركة، وهى تتغير حسب التحديات من ناحية المضمون وأسلوب العرض والمستوى التركيزى المطلوب.

إن الدفاع عن التاريخ الإسلامى والصحابة والتابعين قد يكون الأجدر بالاهتمام فى فترة من الفترات ..

- ومثل هذا يقال فى الدفاع عن النص القرأنى .
- وقد تكون نبوة محمد وشخصيته هما الأجدر بالعناية .
- وقد تكون الأماكن المقدسة هى الأولى بالاهتمام .
- وقد تكون قضايا الاقتصاد الإسلامى وأساسيات إسلامية المعرفة هى القضايا الملحة ...

- وقد يكون النظام الاجتماعى الإسلامى - فى وجه الغارات المادية هو الأحوج إلى الإبراز والتأصيل ...
- وقد تحتاج الحقوق السياسية للإنسان المسلم وما يتصل بها من ضرورة فقه أساسيات النظام السياسى الإسلامى - قد تحتاج - لظروف ما - إلى طرح واسع ومعالجة دقيقة .

- وقد يحتاج (فض الاشتباك) أو (تحرير محل النزاع) أو (بيان نقاط الالتقاء والافتراق بين معالم الوطنية والقومية والإسلامية) إلى جهد مكثف فى عصر زحف الوطنية أو القومية المعادية للإسلام مثلاً ...



- ومثل هذا يقال فى بعض المضامين والمصطلحات التى تطرح بإسراف وعلى مستويات مختلفة - فى بعض الظروف، مثل مصطلحات:

(الأصالة .. التراثية .. التقدمية .. الرجعية .. التحديث ..  
التغريب .. الحرية .. المنهجية .. العلمية .. العلمانية .. الفردية ..  
الجماعية .. المادية .. السلفية .. التطرف .. الثورة .. الإصلاح ..  
الحضارة)

فقد يحتاج الأمر إلى تجلية لحقائق هذه المصطلحات ووضعها فى إطارها الموضوعى وكشف موقف الإسلام منها.

وهكذا فى هذا المحور المتحرك يتجلى الدور الحقيقى والريادى والمتميز للثقافة الإسلامية ويتجلى عطاؤها الذى تتميز به عن العلوم الإسلامية المتخصصة والمعروفة.

\* \* \*

وبالإضافة إلى ذلك - وفى إطار المضمون وصلة الثقافة بالعلوم الأكاديمية والمتخصصة فإن بوسع الثقافة الإسلامية أن تنتجه إلى مجالين تكمل بهما عمل هذه العلوم المتخصصة، فهى القادرة - أكثر من المتخصصين - على اكتشاف التحديات الجديدة فى هذه العلوم المتخصصة، وهى - بالتالى - القادرة على أن تدفع المناهج التقليدية إلى تغيير مساحة حركتها، وإلى تغيير نطاق الاهتمام، وإلى مواجهة ما يجد وإهمال أو -تحجيم- القضايا التى انزوت من ميدان المعركة وحصرها فى ميدان الفكر الأكاديمى (لنلاحظ هنا قضايا علم الكلام مثلاً).

ومن جانب آخر - وهذا هو المجال المكمل للمجال الأول - فإن الثقافة الإسلامية يجب عليها أن تمثل (خط المواجهة الأول) بالنسبة للعلوم الإسلامية المتخصصة، فهي التي تتابع المستحدثات الفكرية - ايجابية أو سلبية - وهي التي تحدد اطار التعامل معها، وتقدم للفكر الإسلامى الأكاديمى رؤية نقدية إسلامية عامة، ثم تترك له أن يقرر مدى أهمية القضية لأن تدخل فى نطاق البحث الأكاديمى المقنن ذى الصفة المدرسية.

فعلوم مثل التغريب والاستشراق، ومحاولات (مركسة الإسلام) أو (بلشفته) أو تأطيره فى نطاق ما يسمى باليسار الإسلامى، أو (تنصير الإسلام) بمعنى تحويله إلى نصرانية ليس لها من الإسلام إلا مجرد الالفة.. والمشكلات التى أفرزتها الصحوة الإسلامية، على رأسها المشكلات الميدانية للاقتصاد الإسلامى، ومشكلات المرأة المسلمة المثقفة فى وجه الغارة عليها ومشكلة إخراج الحج عن دوره الحضارى الإسلامى وتحويله إلى ميدان للمهاترات السياسية والطائفية ومشكلات المدن المقدسة الإسلامية وحرمتها والواجب الإسلامى العام نحوها، ومحاولات تدمير العالم الإسلامى من داخله ببعث الطائفية أو تزكية نعرات عنصرية أو تأجيج حروب إقليمية مدمرة، أو محاولات الإيقاع التى أصبحت واضحة فى أنها مدفوعة بقوة خارجية بين الحكام والشعوب، ولاسيما بين الحكام والشباب المسلم، مما يوجب صياغة معادلة إسلامية لتكثيف هذه العلاقة.. ولمواجهة خطر فهم كثير من الحكام للإسلام - ولشبابه وحركاته - فهما مغلوطين خارجيا..

فلو أن الثقافة الإسلامية اتجهت الى معالجة هذين المجالين المتكاملين لنجحت في أن تمر بأطوار المخاض وبمراحل المعاناة، ولسوف تنشئ - بالتالى - صياغتها ومصطلحاتها والأطروحات التى تشيعها، على نحو أعمق وأكثر علمية ومنهجية، كما أنها سوف تقدم خدمة كبيرة للواقع الإسلامى الصعب ولشباب الإسلام التائه وللمعرفة الإسلامية - شرعية وتطبيقية - بصفة عامة.

إن عدم مواكبة القضايا والإصرار على تقديم بعض القضايا الثابتة أو التى قد لا تكون ظروف التحديات فى حاجة إليها.. إن هذا من شأنه صرف الشباب عن الثقافة الإسلامية، ومن شأنه أن تكرر عنده نظرة غير مبالية بأهمية الثقافة الإسلامية.. وللأسف فإن كثيرا من الكتب والمجلات والدوريات المعبرة عن الثقافة الإسلامية قد تبدو الصلة بعيدة بينها وبين التحديات المطروحة، وتبدو وكأنها كتاب كتبه عدد من المؤلفين فى موضوعات تجريدية أو فى قضايا انتهت حرارتها وأصبحت تاريخا من التاريخ.

وانه لمن الضرورى بمكان أن نلح على ضرورة تطور المضمون (بعيدا بالطبع عن الثوابت) بحيث يواكب التحديات ويقدم الرأى الإسلامى المدروس دراسة معاناة وأصالة، لا مجرد ردود أفعال هامشية قد تضر أكثر مما تنفع، كما أنها تسيء إلى قضية الإسلام العادلة، حين تبدو دفاعا سطحيا هزيلا فى وجه باطل قوى يتكئ - بدرجة ما - على العلمية والمنهجية.

## التربية ♦ ♦ عقل الحضارة :

إن الارتقاء بمعناه الجزئى أو المادى دون اعتماد على التربية والتثقيف هو كبناء جسم الإنسان دون بناء عقله!!

وقد يبدو هذا الإنسان القوى البنية شيئاً عظيماً.. لكنه - بدون العقل - لن يخرج عن كونه شيئاً... وليس إنساناً سوياً، فضلاً عن أن يكون إنساناً متحضراً...

والتربية ليست فى الحقيقة (للعقل) فقط، بل هى الموجهة (للقلب) أيضاً؛ ذلك لأن القلب له فقهه أيضاً، وثمة قلوب - كما يفيدنا القرآن - لاتعقل : «لهم قلوب لا يفقهون بها» (١)...

وقد وعى خصوم الحضارة الإسلامية خطورة التربية و (التعليم) (الذى هو جزء مهم فى التربية) ولهذا أنفقوا الكثير فى سبيل تغريب التعليم فى بلادنا إما مباشرة أو بواسطة تلامذتهم الذين يتكلمون بالسنتنا لكن عقولهم مكونة غرباً... وبينما يعلن تقرير أمريكى رسمى خطير أن (التربية) هى أهم المجالات التى يجب العناية بها، والتى يجب أن تسبق التصنيع والدفاع بل والصحة (٢) ويعلن التقرير أنه إذا جاءت أمة تفرض على أمريكا مناهج غير (أمريكية) لوجب إعلان الحرب فوراً (٣) (مجرد افتراض)... بينما يعلن هذا فى أمريكا

(١) الأعراف الآية ١٧٩

(٢) أمة معرضة للخطر - تقرير مقدم للجنة الوطنية بأمريكا

١٩٨٣/١٤٠٤هـ مجلة رسالة الخليج العربى عدد ١٢ - السنة

الرابعة .

(٣) المكان السابق .



يفرض علينا نحن المسلمين أن تغرس في أفضل المواقع في عواصمنا (الجامعات الأمريكية)، وتنشر مئات المدارس التي تحمل أسماء (اليسيه والفريير، والعذراء، وفكتوريا، والدومينكان، والإنجيلية، والتديس... ) ويهتم بهذه المدارس - شكلاً ومضموناً وفق المضمون الغربي - فتصبح محاط أنظار كل المثقفين، لدرجة أن أساتذة عرباً في الجامعات الخليجية يقبلون بالحياة بعيداً عن أسرهم العام الدراسي كله حتى لا يفقد صغارهم (في المراحل الابتدائية وغيرها) مقاعدتهم في هذه المدارس التنصيرية (مدارس اللغات) ...

ولقد عجبت إذ رأيت أستاذاً في سن الشباب يترك أسرته من أجل (ابن وحيد) في السنة الأولى الابتدائية... ويرفض لحاق أسرته به... حتى لا يدخل ابنه مدرسة عربية، مع أن البلد العربي الذي يعمل به يهتم اهتماماً كبيراً بالتعليم!!

وثمة آثار خطيرة على المستوى الفكري والسلوكي والنفسي تتركه هذه المدارس، مهما أخفت أهدافها (١) والغريب أن هذا يحدث في عهود (الاستقلال) بينما كان من الأهداف الأساسية لحركات الاستقلال طرد لغة المحتل الأجنبي المفروضة، فما هي ذي تعود - بثوب لطيف - من الباب الآخر، وبأيدينا.

وبالإضافة إلى اللغة ومدارسها والجامعات الأمريكية واليسوعية تم غزو أخطر للتربية من خلال العلوم التي تشكل الشخصية الإنسانية

---

(١) ينظر في هذه الآثار: د / حسان محمد حسان : التعليم باللغات الأجنبية في المدارس الرسمية العربية - تاريخه، أسبابه، آثاره، نشر القاهرة ١٤٠٠هـ.

والاجتماعية، وتعتبر علوماً قيمة ذات معايير عقدية، وعندما نشأت في الغرب قامت على أسس ومعايير أخرى لا تتفق في جملتها مع مجموعة المعايير والقيم التي ينبغي أن تنطلق منها هذه العلوم في مجتمعنا المسلم (١) \*

وقد نظر إلى (التربية) وكأنها علم محايد (الكيمياء والرياضيات) - إذا صح أن تكون هناك علوم محايدة - مع أنها في صميم تكوين الشخصية وطابعها الحضاري ورسالتها وذاتها، وحتى كلمة (التربية الإسلامية) - كعلم - كانت مبشرة ومغزوة.

ومع التربية غزيت مناهج المواد الاجتماعية والدراسات الإنسانية من تاريخ وحضارة واجتماع وعلم نفس واقتصاد وشوه كل شيء، حتى (ابن خلدون) الذي تتلمذ الغرب عليه، تطوع طه حسين بتشويهه، وشوه أدبنا ونسب إليه الانتحال، وأبعد (الاقتصاد الإسلامي) ورفض في البداية - كمادة في الجامعات العربية الإسلامية - (والذي يتتبع ما حدث للمناهج الليبية إبان الاحتلال الفاشيستي، وما حدث للمناهج الجزائرية إبان الاحتلال الفرنسي، وما حدث للمناهج التركية بعد إعلان العلمانية سنة ١٩٢٣، وما حدث للمناهج الأندونيسية إبان سيطرة الشيوعيين وما حدث ويحدث في المدارس الفلسطينية تحت ضغط الاستيطان الصهيوني، الخ. الذي يتتبع كل ذلك يدرك مكان الخطورة، ومواطن الدس، وقنوات السم).

(١) التعليم مع الحضارة (مقال - د / سيد دسوقي حسن مجلة رسالة الخليج العربي عدد ١٥ السنة الخامسة ١٤٠٥هـ).

وهناك تفاصيل كثيرة عن مؤسسات التبشير والتغريب التعليمية التي أنشئت في فلسطين والشام بدءاً من دور الحضانة إلى الجامعة الأمريكية في بيروت (١) ، والقاهرة واستانبول . . . وتفاصيل عن كلية (جوردون) المنشأة بالسودان سنة ١٩٠٢ ، وكلية (ماكيري) في أوغندا التي كان يرسل إليها أبناء جنوب السودان خاصة لاستكمال دراستهم وفقاً للأهداف والتوجيهات الإنجليزية (٢) . . . وأخرى عن المؤسسات التعليمية الإنجليزية في عدن منذ دخول الاحتلال البريطاني سنة ١٢٥٦ (١٨٣٩) (٣) وتفاصيل عن مؤسسات تعليمية شيوعية تحمل أسماء واضحة وشعارات مباشرة في إقليم ظفار بسلطنة عمان ، وفي جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية (سابقاً) وفي مناطق أخرى وقعت تحت النفوذ الشيوعي في الصومال .

ولقد ناقش عدد من مفكرينا المسلمين خطورة التعليم الغربي التغريبي على حياتنا الإسلامية منهم شاعرنا الإسلامي الكبير (محمد إقبال) الذي أطلق على هذا النوع من التعليم (حامض التعليم) الذي يحاول إذابة الشخصية الإسلامية ومحو خصائصها الأساسية وتشويه ملامحها ، وتوجيهها وجهة غربية بحتة في الاتجاه والسلوك والمشاعر . ومن هؤلاء المفكرين مفكرنا الإسلامي المعاصر «أبو الحسن

---

(١) راجع التفاصيل : مصطفى خالدي وعمر فروخ ، التبشير والاستعمار في البلاد العربية ص ٧٦

(٢) راجع ضرار صالح ضرار ، تاريخ السودان الحديث ، مكتبة الحياة ، بيروت ص ٢٤٦ وما بعدها - وانظر: حسان محمد حسان - وسائل مقاومة الغزو الفكري ٧١ - ٧٢ .

(٣) راجع جاد طه ، سياسة مقاومة الغزو الفكري في جنوب اليمن دار الفكر العربي ص ٣٧٥ - ٣٧٦ (نقلا عن وسائل مقاومة الغزو الفكري) .

الندوى» فى كثير من كتاباته (١) ومحمد محمد حسين فى كتابيه :  
(حصوننا مهددة من داخلها، والاتجاهات الوطنية فى الأدب  
العربى) (٢).

إن الشباب المسلم الذى نشأ فى هذا المناخ وما زال حتى اليوم يعانى  
منه، يشعر بكثير من الازدواجية، فهذه المناهج والجامعات التى تريد  
سلخه عن جلده ومسح شخصيته إنما هى إفراز لشخصية غريبة عنه،  
وتعبير عن قيم لا تمت إليه... وعلى الجامعات الإسلامية - وما قبلها  
من مراحل تعليمية - أن تسعى لتطوير العلوم المادية والإنسانية لخدمة  
الأهداف العليا للمجتمعات الإسلامية، تلك التى تعبر عن عقيدتها وقيمتها  
ورسالتها الحضارية...

وهذه الأهداف العليا يقع على الجامعات عبء كبير فى تحديدها  
وصياغتها صياغة علمية، كما يقع عليها عبء صياغة القيم السائدة  
المعبرة عن طابعها الحضارى.

وعليها أن تكون الإطارات القادرة على تحقيق هذه الأهداف وغرس  
هذه القيم، إذ إن دور الجامعات يأتى فى المقدمة من حيث إعداد  
الطاقات البشرية المهنية والقادرة على المساهمة فى نقل هذا المجتمع من  
مجتمع آخذ فى النمو إلى مجتمع متطور خلال فترة زمنية طموحة،

---

(١) راجع التفاصيل : أبو الحسن الندوى، نحو التربية الإسلامية الحرة  
فى الحكومات والبلاد الإسلامية . المختار الإسلامى القاهرة.

(٢) راجع وسائل مقاومة الغزو المكرى - د/حسان محمد حسان طبع  
الرابطة ص ٧١، ٧٢ - مكة المكرمة ١٤٠١ هـ



على أن تتم عملية الانتقال تلك مع عدم المساس بجميع المقومات والقيم الصالحة للمجتمع، مع الاستفادة القصوى من الموارد المتاحة بكل قيم ومقومات الحياة وأهمها الإنسان.

والإنسان هو محور الحديث المتصل عن الإنتاجية، لأنه مركز الثقل في عملياتها، فمنه تنبع، وإليه تتجه، وهو في ذات الوقت الوسيلة إليها، لأن به تتحقق المعدلات المرتفعة لها، وتنمية الطاقة البشرية هي مهمة أساسية من مهام مؤسسات التعليم العالي، وتقف على قائمة أولويات المجتمع الذي يعاني من قلة السكان، وندرة القادرين من المواطنين على المساهمة في برامج التنمية (١).

ومن الجدير بالذكر أنه في ظل المفهوم الشامل للتنمية، وذلك الذي يجمع بين التنمية الثقافية والاقتصادية والأخلاقية في نسيج واحد - يبدو دور الجامعات في التنمية الموصلة إلى الأهداف العليا دوراً رائداً، ليس باعتبارها التي تصنع الإنسان فحسب، بل باعتبارها المؤسسات القادرة على التعبير الاجتماعي والثقافي النمطي الذي ينسجم مع شخصية المجتمع وذاتيته الحضارية.

وتستطيع الجامعات - في ضوء هذه الإمكانية - أن تعالج الأمراض الحضارية الخطيرة في الأجيال الشابة، وعلى رأسها (القابلية للاستعمار) و (الفراغ العقدي) و (الادانتماء) و (اللامسئولية) والاستعداد لتقبل (الازدواجية) في الحياة، أي التعامل بالشخصية المزدوجة غير السوية، والتخلف الفكري، والامية الثقافية التي يتمتع

(١) إنتاجية مجتمع - د/ محمود محمد سفر - الطبعة الأولى -  
١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م - جدة - السعودية ص ١٥٦.

قطاع كبير من حملة المؤهلات العليا .

وإذا كان هدف المجتمع - أى مجتمع - الوصول بأفراده إلى إنتاجية أكبر يصبح لزاماً أن يختار المجتمع لكل فرد فيه النوعية المناسبة من التعليم والتدريب خلال مدة محددة ليؤدي الفرد بعدها مهمة بعينها فى خريطة المهام الوطنية للمجتمع، وحسب قائمة أولويات محددة سلفاً بحيث يستنفر كل عضو فى المجتمع ليقوم على ثغرة من الثغرات، إما باعتباره فرض عين أو فرض كفاية، وذلك من خلال تحديد واضح للأهداف العليا للمجتمع .

نحن لا ننكر أن ذلك بالطبع أمر بالغ الصعوبة، وتختلف النظم فى محاولتها القرب من الغاية، ففى بلد كأمریکا تعطى للطلاب حرية الحركة فى المدرسة والجامعة والمجتمع ليكتشف نفسه، ويحدد قدراته، ويصحح خطوه .

أما فى بلدان العالم الإسلامى فحرية الحركة الاستيعابية للطلاب داخل النظام تكاد تكون معدومة، والأجهزة التعليمية غير قادرة (إما لثقل حملها، أو لعدم اكتمالها) على الاكتشاف المستمر للقدرات المختلفة عند الطالب، وحتى لو اكتشفت قدراته فإن تحقيق المسارات المختلفة للقدرات المختلفة أمر ليس فى قائمة أولويات النظم التعليمية فى بلدان العالم النامى ، بل إنه فى أحيان كثيرة يؤدي الهيكل الوظيفى فى المجتمع إلى اختيار خاطيء من الطلاب لنوع من التعليم أو التدريب بحيث يملئ هذا الهيكل ضغوطاً اجتماعية تجعل مساراً بعينه أكثر بريقاً وأشدّ جذباً (١)

(١) إنتاجية مجتمع د / محمود محمد سفر ط١ ص ١٥٩ (بتصرف).

وهذا ما وقع للتعليم الجامعى - فعلا - فى كثير من بلداننا الإسلامية بحيث وجدنا كثافة لا لزوم لها فى بعض التخصصات ، وبالتالى فائضا كبيرا... بينما وجدنا عجزا فى كثير من التخصصات. وحتى فى داخل الكلية الواحدة، لم يكن التقسيم بين التخصصات متوازنا ومرتبطا بحاجات المجتمع التى توضحها خطة مستقبلية. وقد كان لهذا المسلك تأثيره المدمر على الشباب ، إذ ظهرت لديهم البطالة المقنعة وأحسوا بأنهم عبء على حاضر أمتهم ومستقبلها، وألفوا الكسل وعدم الاهتمام بقيمة العمل، بل فقدوا تقديرهم لقيمتهم الإنسانية... فضلا عن وجود تخصصات كثيرة تعاني من نقص كبير.

وثمة مشكلات أخرى تتصل بالتربية وتحتاج إلى جهد كبير من الجامعات لما لها من صلة بالشخصية الحضارية للأمة... وللأسف الشديد، فلا يكاد يهتم بها إلا عدد قليل من الجامعات فى العالم الإسلامى، وإلا بعض الغيورين الذين يعملون بجهود فردية ومحدودة... وهذه المشكلة هى ما يعرف بازدواجية التعليم فى عالمنا العربى والإسلامى، حيث نجد على امتداد الجامعات نمطين متناقضين:

أحدهما: يجهل قدر العلوم الإنسانية كالاقتصاد والتاريخ وعلم النفس والفلسفة والتربية، مع ما أثبتته هذه العلوم من قدرة تنظيرية فى مجال تقدم الغرب ووعيه بذاته.

وثانيهما: يتبع التحليل الغربى فى رؤيته لهذه العلوم<sup>(١)</sup> حتى أصبح

(١) انظر فلسفة العلوم بنظرة إسلامية : كارم غنيم (نقد كتاب) المسلم المعاصر ٤٣/١١.

التصور الكونى والنفسى والأخلاقي والاجتماعى الذى تطرحه هذه الأفكار حرباً على دين الأمة ورؤيتها الإيمانية للكون وما وراء الكون.

وفى مرحلة (النضج) الذى اصطلحنا على تسميته (بالصحوة) أو بداية الثقة فى أنفسنا وفقهنا لأبجديات التحضر... فى هذه المرحلة يجب تصحيح موقفنا من هذه العلوم... ولن يتأتى ذلك إلا بمزج هذه العلوم بعلوم الإسلام ونظرة الإسلام، فهما - فى الحقيقة - كيان واحد... وليس هناك فى الحقيقة شئ اسمه... فقه... وآخر اسمه اقتصاد واجتماع... فالثلاثة كيان واحد... والأخلاق وعلم النفس والتربية منظومة واحدة يجب أن تنبع من التصور الإسلامى شريعة وأخلاقاً، والفلسفة يجب أن تشرق من شمس العقيدة والوحى، وإلا أصبحت تجريداً وهمياً وجدلاً عقيمًا يستطيعه كل إنسان بلا ضوابط أو ركائز.

وهكذا «فأسلمة» المعرفة مطلب وجودى... ولا بد من سد الفجوة الملحوظة بين التخصصات الإسلامية والتخصصات الأخرى وإلغاء الحواجز بينها بحيث تتم «أسلمة» التخصصات الأخرى بأن تنبع من مفاهيم إسلامية، وفى الوقت نفسه الاعتراف بالتخصصات العلمية ومناهجها، كالطب والهندسة، والصيدلة، والزراعة والعلوم... إلخ، وقبولها وتطوويرها إلى أحدث ما تصل إليه من منابعها فى حضارتنا ومن تعاليمها فى الغرب، مع التأكيد على المحافظة على الشخصية للطالب الدارس لها ليتمكن من ممارسة مهنته بعد تخرجه إنساناً مسلماً قبل أن يكون متخصصاً فينطلق فى ممارسته من تصورات إسلامية واضحة فى التعامل مع الآخرين حتى يمكن أن يتميز عن صنوانه من غير المسلمين أخلاقياً وسلوكياً... وهكذا فلن نصل إلى منظور



حضارى سليم دون (أسلمة المعرفة) وأسلمة عقول الباحثين عن المعرفة (١) .

إن التربية الغربية تقوم فلسفتها - بصفة عامة - على عدد من الكليات التى تتناقض تماماً مع فلسفتنا وحضارتنا . ومن هذه الكليات: فكرة التطور فى كل شئ حتى فى الإنسان والقيم، وفكرة البقاء للأقوى، وفكرة صراع الطبقات، وفكرة (فرويد) فى الدافع الجنسى وراء حركة الإنسان، وفكرة النسبية وإنكار كل مطلق، وفكرة الوضعية، وإن المعرفة الحققة لا تقوم إلا على المشاهدة وحدها. (٢)

فكيف نأخذ مناهج هى ثمار هذه البذور التى تتناقض تماماً مع كلياتنا الفلسفية التى تؤمن بوجود عناصر ثابتة فى الإنسان والقيم، وترى أن البقاء للأصلح «وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض» وتؤمن بتعاون الطبقات لا بصراعها، وترى أن الدافع الإنسانى يخضع لمحرك الإيمان - بالدرجة الأولى - ولا اعتبارات أخرى مكملتها - ومنها الجنس والاقتصاد، وترى أن (عالم الغيب) - والمعقولات - أساسيات فى نظرية المعرفة الحققة.

ويجب ألا يغيب عن بالنا أن التعليم الجامعى يحتوى على عنصرين متكاملين : الجوهر الثقافى، والإعداد التخصصى . فأما الجوهر الثقافى فله أبعاد علمية وأبعاد تربوية وأبعاد حضارية، وأما الإعداد التخصصى فله أبعاد تحليلية وأبعاد تصميمية وأبعاد تقنية (٣).

أليس من الأجدى أن تنطلق مناهجنا وجوهر ثقافتنا من تصوراتنا

(١) انظر إنتاجية مجتمع . الدكتور محمود محمد سفر . الطبعة الأولى ١٩٨٤م . السعودية . ص ١٦٤ ، ١٦٥ .

(٢) د / سيد دسوقي حسن؛ مرجع سابق.

(٣) المرجع السابق.

الكلية؟ وأليس من الأجدي أن لا تبدد طاقات جامعاتنا التطبيقية في (البعد التحليلي) «وبدرجة ما البعد التصميمي» على حساب عملية التقنية؟

الحقيقة أننا بحاجة إلى إعادة نظر في النسبة بين البعد التحليلي والبعد التصميمي والبعد التقني في ضوء الحاجة الاجتماعية (١) .

ونحن - أيضا - في حاجة إلى إعادة نظر مستبصرة في ضوء البعد الاجتماعي - وكلياتنا الحضارية - لكل مناهجنا في الجامعات والتعليم عموما .

وعندما نقوم بهذين المطلبين الجوهريين فسوف ينتهي عصر التيه والتمزق في شبابنا المثقف، وسوف يجد شبابنا طريقه معبدا نحو الانطلاق والإبداع، شريطة أن يقف ذلك فوق أرضية السنة النبوية والسيرة الشريفة - نموذجنا الحضاري - وفي إطار بعث الذات المسلمة الواعية بإطارها الحضاري ومهمتها التاريخية .

(١) د / سعد دسوقي حسن : مرجع سابق.

الفصل

الرابع

الغزو الثقافي الحديث في المجال التاريخي

ودوره في أزممتنا الحضارية





## أسباب الغزو الثقافي فى تاريخنا:

كثيرة هى الغارات التى شنت - ولا تزال - على تاريخنا الإسلامى، وقديمة - أيضا - هى هذه الغارات، وموصولة تتدافع حلقاتها فى سلسلة يأخذ بعضها فى خناق بعض ... وتعود هذه الغارات قديمها وحديثها لأخطاء أساسية ...

أخطاء تتصل بسيطرة (المذهب) على (المنهج) و (الولاء المسبق) على (الحقيقة الموضوعية) ...

وأخطاء تتصل (بمخططات موصولة) تهدف إلى القضاء على عظمة تاريخ هذا الدين وعظمة حضارته .

وأخطاء تتصل (بأحقاد موروثة) نشأت منذ ظهر الإسلام على هذه الأرض واستطاع ببساطته وملاءمته للفطرة ووضوح حقائقه العقديّة والتشريعية والأخروية أن يغير مجرى التاريخ، وأن يعيد رسم خريطة العالم، وأن يتسنى ذروة الحضارة، ولقد قام تاريخ هذا الإسلام وقامت حضارته فوق الساحة نفسها التى كانت لعقائد أخرى - بطبيعة الحال - فكان هذا مبعث أحقاد لدى أصحاب هذه العقائد .

وأخطاء تتصل بأسباب أخرى كثيرة لكنها - فى معظمها - تلتقى عند نقطة (الصراع الحضارى) الذى يعنى (تشويه) تاريخ هذه الأمة والانتقاص من قدر تجربتها فى التاريخ ودورها فى الحضارة، ويعنى - أيضا - طمس (العوامل) التى جعلت هذه الأمة تثب هذه الوثبة العظمى فى التاريخ ... حتى أصبحت مكتبة الحكم المستنصر بالله بن عبد الرحمن الناصر (ت ٢٦٦هـ) تضم أربعمئة ألف مجلد بينما كانت أكبر كنيسة فى أوربا - أو مكتبة عامة - لا يزيد ما تمتلكه من الكتب على (١٩٢) كتابا .

## فكيف حدث هذا القفز الحضارى الهائل ؟

وكيف استطاع جيل الصحابة الذى نشأ فى صحراء العرب الوثنية بصفة عامة أن يصنع هذا التحول الحضارى الخطير الذى لم يتكرر فى التاريخ ؟!

لقد كانت أحداث المائة الأولى من عصور الإسلام من معجزات التاريخ، والعمل الذى عمله أهل المائة الأولى من ماضينا السعيد لم تعمل مثله أمة الرومان ولا أمة اليونان قبلها ولا أمة من الأمم بعدها .. أما جيل الصحابة فإنهم جميعا كانوا شموسا طلعت فى سماء الإنسانية مرة ولا تطمع الإنسانية بأن تطلع فى سمائها شمس من طرازهم مرة أخرى (١) .

إن تلك المعجزات التى صنعها (القرآن) و (التربية المحمدية) لحرية - فى نظر أعداء الإسلام - بحرب دائمة لمحو إشعاعاتها، ولصرف المسلمين عن التعلق بها والدوران فى فلكها، وعن الاعتقاد بأن آخرهم لن يصلح إلا بما صلح به أولهم .

إن نماذج أبى بكر وعمر وعثمان وعلى بن أبى طالب وخالد والزبير وطلحة وعمر بن العاص - وهلم جرا - يجب أن تفسر مواقفهم تفسيراً يجعل وراء ظاهرها باطنا سيئا يجردها من عنصر (الإخلاص) ويجب أن تكون فترة (السيرة) كلها بدءاً من صاحب الرسالة العظمى - عليه الصلاة والسلام - هدفاً رئيسياً للشبهات والطعنات والتماس التبريرات المغلوطة لكل مواقف اجتهادية .

---

(١) العواصم من القواصم -المقدمة- بقلم العلامة محب الدين الخطيب.

وبعد الراشدين يأتى الأمويون الذين تلقفوا الراية، وساحوا بها فى الأرض فاتجهوا غربا حيث أتموا فتح المغرب (٨٦هـ) الذى كان قد توقف بعد معركة ذات الصواري (٣٥هـ) وفتحوا الأندلس (٩٢هـ) واتجهوا شرقا ففتحوا ما وراء النهر بقيادة المهلب بن أبى صفرة ومحمد بن القاسم الثقفى ومسلمة بن عبد الملك ...

وكما لم تنج السيرة والعصر الراشدى من ترصد هؤلاء، وكما لم ينج الأمويون - من باب أولى - فقد نالت سهام هؤلاء العباسيين وكانت السهام الموجهة إليهم أكثر ...، لأن عمرهم قد امتد، وخلفاءهم كانوا أكثر... وبالتالي فإمكانية التصيد والتشويه تمتد إلى أطول مساحة ممكنة !!.

وهكذا تتوالى الحلقات، بحيث يراد لأمتنا أن تنتهى إلى الاقتناع بأن تاريخها وحضارتها لا يستحقان منها كل هذا الولاء، وبأن الانتماء إلى غيرها لن يودى إلى خسارة كبيرة بل ربما يودى إلى بعض مكاسب (الحداثة) و (المعاصرة)!!.

### المنهج المنحرف فى معالجة تاريخنا:

والغريب أن هؤلاء يضعون لتشريح تاريخنا (منهجاً خاصاً) - وصولاً إلى إدانته - فبينما يعالجون تاريخهم، وتاريخ كل الأمم الأخرى بمقياس قريب من (الواقعية) و (الموضوعية) لدرجة أنهم تواضعوا على التفرقة بين الالتزام العام والحياة الشخصية، فإنهم يعمدون إلى محاكمة تاريخنا وكأنه تاريخ ملائكة ليسوا من البشر، إنهم يريدون منهم أن لا يختلفوا فى رأى ولا يجتهدوا فى الوصول إلى ما يؤمن كل منهم أنه الحق ... إنهم يريدونهم قوالب مصبوبة فى قالب واحد

دون أدنى تعبير عن العقل الخاص والرؤية الخاصة .  
والحقيقة أننا نحن-المسلمين-ساعدنا على شيوع هذا المنهج .. فقد  
تحدث كثير منا عن هذا التاريخ بطريقة أسطورية فبدا هذا التاريخ  
وكان الذين عاشوه يجب أن لا تكون لهم أية اجتهادات مرجوحة، بل  
كلهم يجب أن تكون كل اجتهاداتهم راجحة - وهو أمر لا يستقيم  
ومنطق الحياة - ولقد صرفنا هذا المنهج عن التحليل الموضوعي  
الكريم في إطار الأدب الإسلامي الذي علمنا إياه نبينا عليه الصلاة  
والسلام .

وقد أدى هذا إلى موقفين :

موقف قبول كامل لهذا التاريخ دون الاستفادة من بعض الجوانب  
السلبية البشرية التي هي ضرورة في الاجتماع البشري ...

وموقف آخر تمثل في رد فعل يذهب إلى رفض هذا التاريخ  
مستجيباً إلى أية دراسات تتلفع برداء العلمية والعملية في تحليل  
التاريخ، وتعتمد إلى بث الشبهات والافتراءات .. وتضخم الاجتهادات  
البشرية المخلصة فتحولها إلى أخطاء وكبائر!!

وأيا كان الأمر - فقد كان هذا الموقف - من الأعداء والبسطاء  
مظهراً من مظاهر المنهج المنحرف في معالجة تاريخنا، وهو مظهر  
سار في تاريخنا كله حتى اليوم .. فنحن ما زلنا ننظر إلى مصلحينا  
وأئمتنا في العصر الحديث بالمنظار نفسه .. فجمال الدين الأفغاني  
ومحمد عبده - مثلاً - يتواطأ كثيرون على إدانتهم، وقد بذل أحدهم  
عمره - عن حسن قصد - وهو الدكتور محمد محمد حسين -  
رحمه الله - في ترصد حياتهما وتأويلها - دائماً - لغير صالحهما



... وكان على رأيه آخرون من المفكرين، ومنهم : الدكتور على سامى النشار، والأستاذ محمد عطية حميس المحامى - رحمهما الله - ومازال على هذا رأى كثيرون فى الجزيرة العربية ومصر حتى اليوم!! وقد التقى مع هذا رأى (واستثمر الكتابات الإسلامية فيه) الدكتور لويس عوض الذى كان يمثل قلعة من قلاع الصليبية فى مصر ... والرجل الذى يرفض كل ما هو إسلامى وعربى ... ويحارب على صفحات صحفنا المصرية والعربية فى سبيل هدفه، ويأخذ من أموالنا مكافآت سخية كفاء عمله الآثم، وهكذا التقى البسطاء مع الأعداء ... فى نموذج حديث.

وفى المقابل وجد آخرون لا يسمحون بتشريح حياة الأفغانى ومحمد عبده بالمبضع البشرى الذى يرصد الحسنات والسيئات ويوضح الظروف المحيطة بالاجتهادات الخاطئة!!

وإذا ما تركنا هذا المظهر من مظاهر الانحراف، فإننا نجد مظاهر أخرى ساعدت على الانحراف عن المنهج الصحيح فى معالجة تاريخنا .

ومن هذه المظاهر الاختلاف الأساسى فى النظرة إلى الإنسان ومقوماته بين المسلمين وغير المسلمين .. فغير المسلمين قد ألغوا النظر إلى الإنسان وحركته وحروبه وتضحياته وإقامته للمذاهب والدول بمنظار مادية بحت، انطلاقاً من تركيزهم على الجانب المادى فى الحياة واستهانتهم بالجانب الروحى والأخلاقى فيه، ولهذا فهم يفسرون حركة الحياة بالعامل الواحد المادى أو الاقتصادى ويكادون يغفلون دور العناصر الأخرى . وبعضهم يدين «شبنجلر» و «توينبى» لاعتمادهما نزعة غيبية فى تفسير التاريخ، ولايتصور هؤلاء كيف أن أبا بكر يتبرع بكل ماله، وكيف أن صهييا ترك لأهل مكة كل ثروته

وقال له الرسول : (ربح البيع) .. فهم من عالم آخر بعيد لا يستطيعون منه أن يدركوا هذا المستوى الغريب، وهم لذلك يلتمسون كل ما يظنون أنه يخدمهم لتفسير حركة الفتوحات الإسلامية تفسيرات مادية أو اقتصادية، بل إنهم أرادوا لظهور الإسلام نفسه أن يكون قد ظهر لعوامل اقتصادية أو لإنصاف بعض الطبقات!!.

هذه الاستجابة الناقصة هي أول ظاهرة تتسم بها البحوث الغربية عن الموضوعات الإسلامية؛ ذلك أن هناك عنصرا ينقص الطبيعة الغربية - بصفة عامة - لإدراك الحياة الشرقية بصفة عامة والحياة الإسلامية على وجه الخصوص ... عنصر الروحية الغيبية، وبخاصة في العصور الحديثة بعد غلبة النظريات المادية والطريقة التجريبية على وجه أخص، وكلما كانت هذه الموضوعات الإسلامية ذات صلة وثيقة بالفترة الأولى من حياة الإسلام كان نقص الاستجابة إليها أكبر في العقلية الغربية الحديثة (١) \*

وبالإضافة إلى هذا فقد درج أكثر المستشرقين الباحثين في التاريخ الإسلامى على الخضوع لميزان الهوى، واللجوء إلى كتابات من سبقوهم من المستشرقين وكأنها (المصادر الأصلية) والاعتماد على الأفكار الكنسية عن الإسلام، تلك التي سيطرت على الفكر الغربى فى العصر الوسيط والحديث، وأكثرهم يعمل فى دائرة مهمتها الحرب على الإسلام والمسلمين، ويقومون بأبحاث موجهة أصلا لتحقيق أهداف هذه الدائرة، وبالتالي فهم يضعون فى أذهانهم فكرة معينة ويبدأون فى تصيد الأدلة لإثباتها، وحين يبحثون عن هذه الأدلة لا تهمهم صحتها بمقدار ما يهتمهم

(١) الشهيد سيد قطب: فى التاريخ فكرة ومنهاج ص ١٦١ دار الشروق.

إمكان الاستفادة منها لدعم آرائهم الشخصية، وكثيرا ما يستنبطون الأمر الكلى من حادثة جزئية، أو أنهم يدخلون بشخصياتهم وآرائهم وأهوائهم الخاصة فيفسرون الحوادث ويناقشون النصوص، ويحللون القضايا والشخصيات الإسلامية على ضوء وجهة نظرهم، ويطلقون من نافذتهم الخاصة فيلقون ظلالا معينة تغير معالم الصورة الأصلية . ومن هنا يضربون في متاهات أملاها عليهم الهوى والغرض رغم ما توافر لهم من الإمكانيات العلمية بالحصول على المخطوطات الثمينة من تراث الإسلام، التي كان من شأنها أن تهديهم إلى الفكرة السليمة عن الإسلام والمسلمين (١) .

ويشير الدكتور «جواد على» إلى أن المستشرق كيتانى كان يعتمد منهجا معكوسا في البحث يذكرنا بكثير من المختصين الجدد في حقل التاريخ الإسلامى والذين يعملون وفق منهج خاطيء من أساسه؛ إذ يتبنون فكرة مسبقة، ثم يجيئون إلى واقع التاريخ لكى يستلوا منه ما يؤيد فكرتهم ويستبعدوا ما دون ذلك، فلقد كان «كيتانى» ذا رأى وفكرة، وصنع رأيه وكونه مما فى السيرة قبل الشروع فى تدوينها، فلما شرع بها استعان بكل خبر من الأخبار ظفر به ضعيفا وقويها، وتمسك بها كلها ولا سيما ما يلائم رأيه، ولم يبادر بنقض الخبر الضعيف بل قواه وسنده وعده حجة، وبنى حكمه عليه . ومن يدرى فلعله كان يعلم بسلاسل الكذب المشهورة والمعروفة عند العلماء ولكنه عفا عنها وغض نظره عن أقوال أولئك العلماء فيها، لأنه صاحب فكرة يريد إثباتها بأية طريقة كانت، وكيف يتمكن من إثباتها وإظهارها

---

(١) عماد الدين خليل: دراسات تاريخية ص ١٦١ نشر المكتبة الإسلامية .

وتدوينها إن ترك تلك الروايات وعالجها معالجة نقد وجرح وتعديل على أساليب البحث الحديث (١) \*.

وترد في ختام كتاب ايتين دينيه (الشرق كما يراه الغرب) بعض الآراء حول هذا المنهج حيث يقول :

لقد أصاب الدكتور سنوك هيرغرنجة بقوله (إن سيرة محمد الحديثة تدل على أن البحوث التاريخية مقضى عليها بالعقم إذا سخرت لأية نظرية أو رأى سابق) .

ويعقب صديقنا الدكتور عماد الدين خليل على هذا الاتجاه الملحوظ في الفكر الاستشراقى بقوله : ونحن نستطيع أن نحصل على عشرات بل مئات من هذا (الانتقاء الكيفى) أو التفسير الاختيارى للنصوص التاريخية فى كثير من كتب المستشرقين وبخاصة أجيالهم السابقة، فبروكلمان على سبيل المثال لا يشير إلى دور اليهود فى تأليب الأحزاب على المدينة ولا نقض بني قريظة عهدهم مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى أشد ساعات محنته، ولكنه يقول (ثم هاجم المسلمون بنى قريظة الذين كان سلوكهم غامضا على كل حال) ويتغاضى عن حادثة «نعيم بن مسعود» فى معركة الخندق كسبب لانعدام الثقة بين المشركين واليهود، ولعله يريد أن يوحى بذلك إلى أن اليهود لا يمكن أن يخدعوا!!!.

ومثل هؤلاء - أيضا أولئك الذين يسقطون على التاريخ الإسلامى أهواءهم المذهبية، فهم منطلقون - أيضا - من خلفية فكرية قهرية متعسفة تلوى عنق الحقائق كرها حتى تصبح هذه الحقائق خادمة فى

(١) عبد الكريم باز؛ افتراءات فليب حتى وكارل بروكلمان ص ٢٥ نشر دار تهامة - السعودية.



بلاط (الاشتراكية) مرة و (الليبرالية) مرة أخرى، ويصبح عمر وأبو ذر يساريين وعثمان وعبد الرحمن بن عوف يمينيين إقطاعيين، ويصبح هناك صراع بين اليمين واليسار في الإسلام<sup>(١)</sup> وقد لجأوا - في سبيل تكييف الوقائع حسب أهوائهم - إلى الاعتماد على الآراء والتحليلات الضعيفة وعمقوها وجعلوها هي الحق، وسواها باطل، كما رجحوا آراء المارقين والمنحرفين واعتبروهم الفلاسفة والمفكرين الممثلين للإسلام، وفي مجال التاريخ رجحوا آراء أصحاب الفرق الباطنية وأصحاب النزعات الفوضوية والإكعادية وجعلوهم (المعارضة الثورية) لسيادة التيار الإسلامي المحافظ والممثل للشعب المسلم.

ومن مظاهر المنهج المنحرف الذي يلتزم به أقداب الغزو الثقافي لتاريخنا ما يعتمد إليه أكثر المستشرقين من إسقاط المنطق الوضعي العلماني، والرؤية البيئية المعاصرة للمناهج الغربية على الوقائع والأحداث الإسلامية الماضية فلقد رأى المستشرق المسلم دينيه - على سبيل المثال - أنه من المتعذر إن لم يكن من المستحيل، أن يتحرر المستشرقون من عواطفهم وبيئتهم ونزعاتهم المختلفة وإنهم لذلك قد بلغ تحريفهم لسيرة النبي والصحابة مبلغا يغشى على صورتها الحقيقية من شدة التحريف فيها، ورغم ما يزعمون من اتباعهم لأساليب النقد البريئة ولقوانين البحث العلمي الجاد فإننا نلمس من خلال كتاباتهم أن محمدا يتحدث بلهجة ألمانية، إذا كان المؤلف ألمانيا، ولهجة إيطالية إذا كان الكاتب إيطاليا وهكذا تتغير صورة محمد بتغير جنسية الكاتب، وإذا بحثنا في هذه السير عن الصورة الصحيحة فإننا لا نكاد نجد لها من أثر.

(١) مقالات للكاتب الأستاذ أحمد عباس صالح نشرت بمجلة الكاتب تحت هذا العنوان وقد عاد إلى الله وأدى الحج العمرة!! ويسمى أن يعيد النظر في تشريعه هذا!!.

إن المستشرقين يقدمون لنا صورة خيالية هي أبعد ما تكون عن الحقيقة، وهكذا تتعالى (المظاهر) التي أدت إلى انحراف المنهج لدى طبقات كثيرة، من هؤلاء الذين يشتغلون بمعالجة قضايا تاريخنا الإسلامى وحضارتنا الإسلامية ...

وكلها مظاهر منبعها الجهل فى الأقل، والحق فى الأكثر، والبعد عن المنهج العلمى السليم فى كلا الحالين.

### تاريخنا والغزو التنصيرى والعلمانى:

دأبت الدوائر الكنيسية والغربية بصفة عامة على الاشتغال بتاريخنا وحضارتنا بطريقة مكثفة .. ولو حصرنا عدد المشتغلين بالتاريخ الإسلامى وتراث الإسلام من هؤلاء لوجدناهم أعداداً غفيرة، وقد تتلمذ على أيديهم من المسلمين كثيرون، كما تتلمذ على أيديهم بعض النصارى العرب الذين خانوا حضارتهم العربية والإسلامية، ولم يكونوا فى مستوى النضج الحضارى الذى مثله الشاعر اللبنانى (بشارة الخورى) أو السياسى الوطنى المصرى (مكرم عبيد) الذى كان يقول (أنا مسلم وطنى مسيحى ديناً) ... وكان من أسوأ هؤلاء وأجراًهم على الدعوة للتغريب والتنصير الكاتب سلامة موسى والمؤرخان جورجى زيدان وفيليب حتى، ثم تلميذهما (لويس عوض)!!

وقد تعاون المستشرقون و المستغربون معا على تشويه تاريخنا، ولهم فى ذلك خطوط فكرية ثابتة ... نستطيع أن نلم بأهمها على النحو التالى:

١ - التركيز على فترات الخلاف بين المسلمين وتوسيع دائرة الحديث عنها، والإغضاء - بالتالى - عن المساحات الأخرى الكبيرة المتألفة.

٢ - القول بأن فترة الالتزام بالإسلام لا تعدو أن تكون فترة العصر الراشدي.

٣ - إثارة العنصريات وتعميقها بين العرب والبربر والأتراك والفرس بهدف إضعاف روح الإخاء الإسلامي بين المسلمين، وهم يتذرعون لذلك بإحياء النزاعات والخلافات بين هذه العناصر الإسلامية.

٤ - محاولة إبراز كلمات (العروبة) و (العرب) و (الفكر العربي) و (الحضارة العربية) بغرض إثارة الشعوب الأخرى التي ساهمت في صنع الحضارة الإسلامية وتأليبها ضد العرب.

٥ - إبراز دور الأقليات غير المسلمة وتحريكها ضد الأمة ... والزعيم بأنها أقلية ظلمت وانتهكت حقوقها.

٦ - كراهية كل الدول والجماعات التي أنقذت المسلمين ووقفت ضد الزحف الصليبي مثل المماليك والأيوبيين والعثمانيين ويفوز العثمانيون بالنصيب الأوفر من حقد هؤلاء لاعتبارات كثيرة.

٧ - محاولة إرجاع ما يوجد من صور النهضة في الحياة الإسلامية إلى الاحتلال الأوربي، مثل الحملة الفرنسية على مصر، وبعثات محمد علي إلى أوروبا.

٨ - تمجيد كل الذين خانوا الإسلام وحاربوه مثل مصطفى كمال أتاتورك في تركيا وأكبر شاه في الهند وغيرهما .. وفي المقابل الانتقاص من قدر المجاهدين والمصلحين وتلفيق التهم ضدهم.

٩ - التشكيك في التراث الحضاري للمسلمين بدعوى أن الحضارة الإسلامية منقولة عن الحضارة الهيلينية، وأن المسلمين - بالتالي - لم يكونوا إلا نقلة ومترجمين لفلسفة تلك الحضارة، ولم يكن لهم إبداع فكري ولا ابتكار حضاري (١).

١٠ - تشويه منصب الخلافة الإسلامية ورميه بأبشع الصفات وإعلان (١) عبد الكريم على باز : افتراءات فيليب حتى وبروكلمان.



حرب دائمة عليه حتى بعد زواله ... وأليس عجبا أن تكون اتفاقية «كرزون» المبرمة ضمن مؤتمر لوزان (٢٤ يوليو ١٩٢٤) متضمنة في بندها الأول : (إلغاء الخلافة الإسلامية نهائيا من تركيا) وفي بندها الثاني أن تقطع تركيا كل الصلة بالإسلام !! أليس هذا التدخل في الشؤون الداخلية شيئا سافرا لعناء لا يشبه إلا تدخل أمريكا أمام أعيننا في شؤون بلد عربي وإرغامه على إلغاء تطبيق الشريعة ... وتهديد الآخرين الذين يفكرون في السير في هذا الطريق!!.

١١ - تشويه تاريخنا الحديث بطريقة مزرية، وقد ذكرنا أن الدولة العثمانية باعتبارها البلد الذي قام بالدور الأساسي في حماية المسلمين في القرون الخمسة الأخيرة قد فازت بأكبر نصيب من هذا الهجوم التنصيري.

وقد وصل الأمر بهذا الغزو الثقافي المشين أن اعتبر الوجود الإسلامي التركي الذي حمى الشاطئ المغربي كله، وسد الغزو الأسباني الزاحف بعد سقوط غرناطة، وأدخل الرعب في قلوب الأوروبيين وجعلهم يقفون في موقف الدفاع لأربعة قرون ...

أقول: لقد اعتبروا هؤلاء المنقذين الأتراك (استعمارا) واحتلالا واعتبروا الحركات العميلة للصليبية الدولية ومحافل الماسونية التي باعت فلسطين - حركات تحريرية ثورية!!

واعتبار الأتراك مستعمرين أمر ترفضه طبيعة الأخوة الإسلامية، ولئن كان بعض الولاة الأتراك قد أخطأوا في حق العرب ... فإن كثيرا من (الحكام العرب) الذين حكموا بعد الترك قد أجزموا في حق شعوبهم ... وقد كان الولاة الأتراك في جملتهم أفضل كثيرا من الذين حكمونا في عصور استقلالنا العظيم (!! ) ومع ذلك - وبالإضافة إلى الأخوة الإسلامية - فنحن نتساءل:



## هل كانت تركيا دولة استعمارية؟

ولكى نجيب - علميا - على هذا السؤال لا بد لنا من أن نتفق على معنى (استعمار) ... الاستعمار - تاريخيا - حالة معينة من التطور الاقتصادي ... تقف في قمة التطور الرأسمالي ... فهل كانت الدولة العثمانية واقفة في هذه القمة ؟ بالطبع لا .. لقد كانت أفقر من بعض البلاد التي يقال إنها خاضعة لها، فالعلاقة الرسمية الوحيدة التي كانت تربط مصر - مثلاً - بتركيا هي الخطبة للسلطان، وحق السلطان في تعيين الوالي .. الوالي الذي لا يملك من الأمر شيئاً، والذي كان المماليك والعلماء - بل والعامة - يملكون عزله في أى وقت، ودون إبداء الأسباب.

وقبل الغزوة الفرنسية استقل مملوك فعلاً بمصر - (على بك الكبير) ولولا خيانة زوج ابنته له لما استطاع العثمانيون مواجهته ... بل إن المماليك ظنوا أن الغزوة الفرنسية كانت بتدبير من السلطان العثماني، وواجهوا مندوبه البائس في مصر باتهامهم هذا<sup>(١)</sup>.

فهل جاء نابليون الغازي لتحرير مصر من الأتراك المستعمرين ؟ أليس هذا القول من اللعب بالألفاظ أو اللعب بعقولنا ؟ ومن كان يحكم في ذلك الوقت ؟

وهكذا يمضي الخط التنصيري والتفريبي حاملاً معول الهدم في تاريخنا .. فهذا (دومينيكا سورديل) صاحب كتاب (الإسلام) (٢) يعالج تاريخنا وكأنه يعالج حركة وثنية غامضة ويقول عن الرسول : (إننا لا نعرف الكثير عن شخصية محمد قبل تبشيره بالإسلام،

(١) محمد جلال كسك (ودخلت الخيل الأزهر) انظر عرصا له في كتاب العقل المسلم للدكتور عبد الحليم موسى.

(٢) نشر دار المنشورات العربية بيروت (ترجمة خليل الجبر).

ولانعرف بالتأكيد إلا تاريخ هجرته من مكة إلى المدينة) مع أن حياة الرسول قبل البعثة أوضح حياة بالنسبة لكل العظماء والأنبياء . . . وحياته في مكة تكاد تعرف يوما بيوم . . .!! ويستمر (دومينييك) في تشويه حروب النبي وفي تشويه تاريخنا كله .

وفي كتاب آخر يحمل الاسم نفسه، وقد ألفه (هنري ماسيه) تتابع الأخطاء نفسها عن حياة النبي وتطور الحياة الإسلامية والنظر إلى «محمد» على أنه ليس نبيا وعلى أن القرآن من صناعته (١) وأما (م- س - ترتون) صاحب كتاب (أهل الذمة الإسلامية) (٢) فقد عمد إلى تشويه التسامح الإسلامي، فيصور (الأقباط) في مصر والشام على أنهم مضطهدون طيلة العصر العباسي وما تلاه . . . وهو يجعل المسلمين دائما سبب أية فتنة طائفية تقع، مع أنه لم يملك إلا الاعتراف بطغيان الأقلية المسيحية واستبدادها في كثير من الأحيان .

ويأتي (كارادوفو) الفرنسي صاحب كتاب (مفكرو الإسلام) (٣) ليسير على درب نفسه ويصف الخلفاء بما ليس فيهم، فالمنصور العباسي كان منجما، و (أم الرشيد) قامت بوضع السم للهادي أخى الرشيد حتى يخلو الأمر لابنها، ويصور الخليفة هارون الرشيد - شأنه في ذلك شأن جورجى زيدان وغيره - بالصورة نفسها التي صورتها ألف ليلة وليلة وكتاب الأغاني للأصفهاني : بل إنه ليكابر ويقول بأن روايات ألف ليلة ذات طابع تاريخي، وهو يتمادى في تخبطه فيرى أن «هرورا» سياف الرشيد كان يقطع الناس إربا لأقل هفوة، ويرى أن البرامكة قد نكبهم الرشيد ظلما، وربما أن هناك

(١) نشر محمد جواد مغنية الترجمة د/مصطفى الرافعي .

(٢) نشر دار المعارف بمصر ترجمة د/حسن حبشى .

(٣) ترجمة على زعيني، نشر بيروت (الدار المتحدة للنشر) .

زواجاً اسمياً تم بين (العباسة أخت الرشيد) . وبين جعفر البرمكي، وهي الأسطورة التي نسج حولها أوهامه (جورجي زيدان) . . . وحتى (المأمون) جعله (كارادوفو) محباً لعادات الفرس السامانيين، وأما صلاح الدين الأيوبي فكان عند (كارادوفو) مرائياً نفعياً يتظاهر بأنه سني غيور . . . والويل «لمحمد الفاتح» لأنه بطل إسلامي وفاتح عظيم ولهذا يعتبره «كارادوفو» - لهذا السبب - متقلب الخلق عنيفاً جافاً!!.

وبالإضافة إلى هذا الحشد الغريب من الافتراءات يضيف كارادوفو (صراحة) أخرى حول المؤرخين العرب المسلمين المعتمدين لديهم . أى لدى المستشرقين فيقول : إن مؤرخي الشرق الإسلامي لا يتمتعون بالشهرة في الغرب، والمؤرخون الذين عرفوا في الغرب ليسوا مسلمين، إن المؤرخين المعروفين لديهم هم (جرجس، ابن العميد الملقب بالمسكين - (ت ١٢٧٣م) والشماس القبطي بطرس الراهب وبطريق الإسكندرية المشهور (يوتخيوس) و (اليقوبي بن الصبري).

أما عشرات المؤرخين الموثقين المسلمين بدءاً من مؤرخي السيرة والمغازي ومروراً بالطبري وابن الأثير وحتى المقرئ وابن كثير وابن خلدون، وغيرهم فهم غير معروفين في الغرب .

ولهذا فإن (كارادوفو) نفسه لم يقدم من بين مؤرخي الشرق الإسلامي المعاصرين إلا (جورجي زيدان) ذلك المعول الهدام في تاريخنا، والذي ثبت ولاؤه المطلق للمحافل الماسونية وللتوجيهات الاستشراقية والذي قام بتحريفات فاحشة في تاريخنا في تلك السلسلة التي سماها (روايات تاريخ الإسلام) (!) وتاريخ الإسلام منها براء!!.



والحق أن كل ما كتبه المؤلف من مدح لجورجي زيدان يؤكد المنهج الذي أشرنا إليه سابقا ، وهو المنهج الذي يمدح المفسدين (كهولاكو وأكبر) ويذم المحصلين كصلاح الدين الأيوبي ومحمد الناطق .  
لكننا لا نفضل هنا لمحة للمؤلف تظم إلى لبحاته (الصريحة) السابقة وهي لمحة تؤكد رأينا في جورجي زيدان - فكريديفو بأسف لموت (زيدان) ويشير إلى أن المستشرقين فقدوه منذ زمن قليل، فكأنه يعتبره - وهو عربي - مستشرقاً وهذا ما نسيل إليه!!.

لقد كان - بحق - كارل بروكلمان (ولد في ألمانيا عام ١٨٦٨) - واحداً من المفكرين الذين بذلوا جهداً كبيراً في مجال التاريخ الإسلامي والأدب العربي، فكتاباه: تاريخ الشعوب الإسلامية وتاريخ الأدب العربي من أهم الكتب التي ألفها المستشرقون ومن أحفظها لدى القارئ العربي ، لكن بروكلمان - على الرغم من هذا - لم يستطع التخلص من المناخ نفسه الذي يفرض (الفكرة السائدة عن الإسلام) على المستشرقين .

فبروكلمان في (تاريخ الشعوب الإسلامية) يعتبر الحجر الأسود وثنا يعبد المسلمون (١) وهو يقول إن النبي اعترف بثلاثة آلهة في الكعبة في سنواته الأولى (٢) ويتهم النبي بأن صلاته بالوحي كانت صلة ظنية (احتمالية) (٣)

ويرى أن القرآن قد انبثق عن اليهودية والنصرانية وكيفه محمد تكييفاً خاصاً وفقاً لحاجات شعبه الدينية (٤) ... ويرى أن الرسول أرضى اليهود بتشريع صيام رمضان (٥) ... ويتهم خالد بن الوليد ،

(١) امراءات فيليب حتى وكارل بروكلمان

(٢) المرحع السابق ٩٥

(٣) المرحع السابق ١٠٠

(٤) المرحع السابق ١٠٤

(٥) المرحع السابق ١٠٥



بقتله مالك بن نويرة من أجل زوجته، وفق الرواية الكاذبة التي أشاعها بعضهم... (١) ويرى أن ثراء عثمان غفر له عند الرسول النقص في كفاءته الشخصية (٢) ويصف المغيرة بن شعبة بأنه انتهازي لا ذمة له ولا زمام (٣) ... وسار في قضية العباسة أخت الرشيد وفق المنهج المنحرف نفسه (٤) .

ونتابع صفحات هذا الغزو التنصيري لتاريخنا، فنجدها عند جل المستشرقين من أمثال لامنس ، موير ، ومرجليوث ، ونولد كه ، ودوزي وكيثاني ، ومارسيه وجولد زيهر وإسرائيل ولفنون (اليهودي) وغيرهم .

وحتى بعض المستشرقين الكبار المشهورين بشئ من الحيادة والإنصاف .. لم تخل كتاباتهم من سقطات كبيرة، فجوستاف لوبون صاحب كتاب (حضارة العرب ) عاش يؤمن بأن غير الأوربي في مستوى «القرود» مهما تعلم وتحصل على الدكتوراه في الحقوق والآداب (٥) وأرنولد توينبي يعتبر عودة الإسلام لقيادة الحضارة من الأخطار الضخمة وتمنى أن لا يحدث ذلك (٦).

بيد أن (فيليب حتى) يعتبر من أكثر من احتشدت كتبهم بالافتراءات في نطاق التاريخ الإسلامي، مع محاولة أن يظهر بروح علمية منصفة

(١) المرجع السابق ١١٥.

(٢) المرجع السابق ١٢٠.

(٣) المرجع السابق ١٢٣.

(٤) المرجع السابق ١٢١.

(٥) انظر نظريته تلك في كتابه : السنن النفسية لتطور الأمم وفلسفة التاريخ.

(٦) انظر الصفحة الأخيرة من كتابه (الإسلام والغرب والمستقبل).

وتقديمه كثيراً من كلمات المدح للحضارة الإسلامية .

ومشكلة فيليب حتى (ونحن نقدمه نموذجاً للمستغربين من العرب  
النصارى) أنه لبنانى الأصل ينتمى أصلاً لحضارتنا وقد تفيأ ظلالها ،  
لكن بعد أن تخرج من الجامعة الأمريكية ببيروت سنة ١٩٠٨ ذهب إلى  
أمريكا حيث حصل على الدكتوراه (١٩٢٥) وعاش فى أمريكا بعد ذلك  
متدرجاً فى الوظائف الجامعية ، وحصل على الجنسية الأمريكية  
وأصبح مستشاراً فى معاهد الاستشراق وأجهزة الاستخبارات ورئيساً  
لقسم اللغات الشرقية . . . ومن خلال كتبه (أصول الدولة الإسلامية )  
و (سوريا والسموريون) و (تاريخ العرب) و (الموجز) و (المطول)  
و (أصول الشعب الدرزي وديانته) و (تاريخ سوريا ولبنان -  
وفلسطين) ، استطاع أن يثبت كثيراً من الأفكار المزيقة حول تاريخنا ،  
ولم يكن أميناً فى تقديم حضارتنا للأوروبيين . . .

إن (حتى) ينفى كل معجزات الرسول ما عدا القرآن، ويقول إن  
القرآن لم يعترف إلا بهذه المعجزة الوحيدة (١) مع أن القرآن والحديث  
أكدا وجود معجزات أخرى للرسول كانشقاق القمر ، والإسراء  
والمعراج، ونبع الماء من بين أصابعه ومعجزة الغار، وسراقة وغيرها .  
ويتهم (حتى) الصحابة (باتفاق ) على موضع «السقيفة»، فيقول  
(ولعل مبايعة أبى بكر كانت مطابقة لمشروع دبر قبل ذلك بينه وبين  
عمر وأبى عبيدة) (٢) وهو اتفاق وهمى اخترعته عقول مريضة ولم  
يقم عليه أى دليل، وقد رد عليه كل الذين كتبوا بإنصاف فى تاريخ  
الإسلام وفى النظريات السياسية الإسلامية .

(١) تاريخ العرب المطول ١٧٧/١ نقلاً عن (افتراءات فيليب حتى - عبد  
الكريم بار ص ٤٥)

(٢) المصدر السابق ٤٧

ويتكلم عن سياسة عمر في إدارة الدولة فيرى أن عمر يميل إلى الصفة العسكرية والاشتراكية وأنه وضع الدستور الفكري الذي جعل للعروبة سموا، وللمؤمن العجمي درجة أسمى من غير المؤمن.

وأقل ما يرد به على هذا الادعاء سلوك عمر نفسه ، وتهديد أحد الصحابة له بتقويمه بالسيف لو وجدوا فيه اعوجاجا ... فهل هذا يتناسب مع الحكم العسكري الاشتراكي؟ فضلا عن أن استعمال كلمة (اشتراكية) المعاصرة إسقاط فاسد على تركيبة حضارية مختلفة تماما لها أصولها ونظمها المتكاملة . ويعزو (حتى) الحماسة البريئة في الفتوحات إلى الدافع الاقتصادي <sup>(١)</sup> وهذا أمر منتظر من (حتى) الذي أراد بمشيبته أن ينتمى إلى حضارة مادية فهو لن يستطيع فهم الدوافع الروحية ... أما الجزية فقيمتها المادية تنفى هذا ، وقد كان المسلمون يردونها حين يعجزون عن الدفاع عن أهل الذمة ... وقد رد على هذه الشبهات (توماس أرنولد) في كتابه (الدعوة إلى الإسلام) ...

وبما أننا لا نستطيع - في هذه العجالة - مناقشة (حتى) في كل آرائه ، لأن المناقشة الصحيحة لها تستوجب صفحات طويلة، بينما المناقشات العابرة تضر بالقضية ... فنحن - بالتالي - سنشير إلى بعض أغاليطه ... ونعتقد أن أكثرها من الوضوح بحيث يدرك حقيقته جمهور المسلمين، فضلا عن المختصين ...

يرى (حتى) أن المشكلة الأولى لعلي بن أبي طالب - رضى الله عنه - كانت في التخلص من منافسيه في الوظيفة الكبرى (الخلافة) وعلى رأسهم طلحة والزبير اللذان كانا يمثلان الحزب الملكي ...

(١) المصدر السابق ٥٥.٥٢.

وقد انضمت عائشة إلى صفوف المتمردين ضد علي في البصرة (١) ...

ونحن - فقط - في هذا المقام - نحيل القارئ إلى ما كتب في هذا الموضوع في الطبري وابن الأثير ، وأبى بكر بن العربي صاحب الدواوين من القواصم ، والذهبي صاحب طبقات الحفاظ والدكتور إبراهيم شعوط في (أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ) ... فهذه الدراسات وغيرها كثير - قد عرضت هذه القضية بحياد وموضوعية يستحقان التنويه .

ولم تكن الدولة الأموية لتمر دون تعريض سواء بشخص معاوية - رضى الله عنه - أم بخلفائه ... وقد زعم (حتى) أن عبد الملك بن مروان قد ابتنى في بيت المقدس الصخرة وكان غرضه أن يحول إليها أفواج الحجاج من مكة والتي استقر فيها منافسة ابن الزبير (٢) \*

وأظن أن هذا الادعاء يكشف جرأة (حتى) بطريقة مزرية ... فسيد الملك بن مروان فقيه عابد ناسك (كما وصفه ابن حجر والكتبي وابن الأثير وابن كثير) وقد احتج بقضائه الإمام مالك في الموطأ ... فكيف يتسق هذا مع هذا الكفر الذي يرميه به - بلا سند - المؤرخ حمى ؟!

وهو يتهم عبد الملك وابنه الوليد وهشام بتناول الخمر (٣) معتمدا على (الأغاني) الذي لم يقصد به صاحبه أن يكون تاريخا ... لكن

(١) المرجع السابق ٦١

(١) المرجع السابق ٧٦

(٣) المرجع السابق ٧٨



(حتى ) وأمثاله يصرون - بالقوة - على أن يكون الأغاني وألف ليلة  
وليلة هي المصادر التاريخية التي يتكئون عليها ... فأى منهجية هذه  
تري ؟!

وفى حديثه عن الدولة العباسية ينتهى إلى السقطات نفسها التي  
انتهى إليها غيره من المستشرقين مثل قصة العباسية وعلاقتها بشركة  
البرامكة (١) وهلم جرا .

وهكذا تتضح لنا خيوط الهجمة التنصيرية والعلمانية على التاريخ  
الإسلامى والحضارة الإسلامية . والهدف الأساسى الذى تسعى إليه هذه  
الهجمة هو فك الارتباط الروحى والوجدانى والعقلى الذى يربطنا بهذا  
التاريخ ولا سيما بفترة الاحتجاج التشريعى فيه ، وهى فترة الرسالة  
والراشدية ، ومتى ما تم هذا .. فإن تجريدنا من بقية سور اتحادنا  
للإسلام ميسور .. وهذا هو هدفهم الكبير!!

### تاريخنا والغزو الماركسى :

عندما نجحت الثورة البلشفية سنة ١٩١٧ فى الوصول إلى الحكم فيما  
عرف باسم (الاتحاد السوفيتى) وقامت على أثرها حركة (ماوتسى  
تونج) فى الصين كان كافيا لدى كثير من الدول النامية كى ينظروا  
بإعجاب إلى هاتين التجربتين .

وقد ساعد على هذا الإعجاب تلك الكراهية التى كانت قد تأصلت  
نحو الدول الغربية الاستعمارية التى تمثل القوى المناهضة (فى حدود  
مصالحتها !!) - على المستوى الظاهرى الرسمى على الأقل - للكتلة  
الشيوعية ... ومع الانبهار بدأ الكثيرون ينظرون إلى هذه التجربة

(١) المرجع السابق ص ٨٦

الجديدة على أنها المخلص من الاستعمار التقليدى، وبدأت جماهير كثيرة من المثقفين تقرأ الفكر الماركسى بعين منبهة قليلة عن كل عيب ... بل وبدأت قلة تدعو إلى ضرورة - بل حتمية - السير فى الطريق نفسه الذى سار فيه الروس والصينيون ... وبدأوا يستعيرون المناهج الشيوعية فى تحليل حركة الحياة وفى التفسير الاقتصادى للتاريخ.

ولم يقف أمر التورط فى استعارة هذا المنهج عند حدود الذين «تمركسوا» فحسب، بل إن هذا المنهج قد رشح فى كتابات غيرهم من الذين يمكن اعتبارهم أنصاف «متمركسين» .. أو أقل من ذلك !! وعند هؤلاء وأولئك كان ثمة تركيز واضح على عدد من المبادئ أهمها :

١ - رفض التفسيرات الغيبية (وهم يستعملون غيبية تمويلها وبديلا لكلمة الدينية أو الإسلامية).

٢ - رفض أن يكون للدين تشريعات دنيوية والتركيز وفق فهم خاص على حديث (أنتم أعلم بأمور دينكم ...).

٣ - التركيز على تشريح مجتمعاتنا الإسلامية فى التاريخ فى صورة صراع طبقات أو فى صورة محافظين وثوريين .. وأغنياء وفقراء ... ويمين ويسار.

٤ - التركيز على التفسير الواحدى للتاريخ (العامل الاقتصادى الأوحده) تقريبا فالعوامل الأخرى تكاد تكون عوامل ثانوية.

٥ - لصق الدين بالرجعية والتخلف ، والعمالة للأثرياء

\* \* \*

وفى كتابات كثيرين سيطرت نغمة أن الإسلام دين الفقراء ، ودين الحرية ، ودين المساواة، ودين العدل الاجتماعى، وبدأوا ينبشون

تاريخنا ليكتشفوا - وفق أسلوب فرض المذهب على المنهج - كل الشواهد التي تؤكد نظريتهم . . . . . وبدأوا يحللون الأحداث التي وقعت في عهد عمر وعثمان وعلى ومعاوية - إلى أن وصلوا إلى تاريخنا الحديث - تحليلاً يخدم نظرتهم المبدئية المنطلقة من المادية التاريخية، وقد التقوا مع العلمانيين في تضخيم المشكلات والخلافات التي وقعت بين المسلمين بحكم أنهم بشر، وقد استثمروها لخدمة أفكارهم أسوأ ما يكون الاستثمار، فالفتنة الكبرى (وهي كبرى في رأيهم وليس في رأينا ! . . .) أصبحت طبقة عازلة عن رؤية عظمة تاريخنا وحضارتنا ، وأصبحت بيت القصيد في دراسات هؤلاء !! ولم تعد صراعا على فقه الطوائف الإسلامية لأسلوب الحكم أو خلافا غداة خصوم الإسلام ، بل أصبحت حركة ثورية ذات محتويين اقتصادي واجتماعي يقف منها (عثمان بن عفان ) رمزا للقوة التقليدية المحافظة على مصالح الطبقة الثرية والنظام الإقطاعي ويقف فيها أبو ذر والثائرون، رمزا للقوة التقدمية المناضلة!!.

لم ينج «طه حسين» - مع ميوله الليبرالية - من هذه الآفة، فوقع في (الفتنة الكبرى) على شيء من التفسيرات . . . وذلك عندما نظر إلى مقاومة قريش للرسول على أنها ليست مقاومة لعقيدة التوحيد أو للدين، وإنما هي مقاومة لدعوة مساواة السادة بالعبيد ولمبدأ عدم التفرقة بين الأغنياء والفقراء، والأقوياء والضعفاء.

وبعد «طه حسين» - انهمرت سيول الكتابات الشيوعية في لبنان ومصر وسوريا والعراق وبعض بلاد الخليج العربي، وبعض بلاد المغرب العربي، ولا تكاد تخلو بلد من المتأثرين بهذا المنهج اليساري، بل لقد ظهرت مدرسة تحاول استخدام منهج ملفق يسمى (باليسار الإسلامي) يركز على وجود المكافحين ويكتشف العناصر الاقتصادية والمادية في



تراثنا وتاريخنا . ومع بداية الستينات من هذا القرن الميلادى - أى منذ ربع قرن تقريبا - تمكنت هذه التكتلات من التعبير عن نفسها من خلال أبرز المواقع تأثيرا متلفعة بنوع من الشيوعية المعتدلة...

وفى مجلة الكاتب - المصرية - استطاع رئيس تحريرها الأستاذ (أحمد عباس صالح) أن يوجه المجلة وجهة يسارية ثابتة، وقد كتب فيها سلسلة مقالات تحت عنوان (الصراع بين اليمين واليسار فى الإسلام) عالج فيها الأحداث التاريخية فى عهد رسول الإسلام والخلفاء الراشدين ... مقسما هذا الجيل الإسلامى الفذ إلى يمين ويسار متصارع ... دون أن يلتفت الكاتب إلى أن هذا الإسقاط (المصطلحى) الحديث الخاضع لتطورات مجتمعات معينة من الخيانة للمنهج العلمى إسقاطه على عصور مختلفة وعلى مجتمعات ربما لم تعرف مصطلح (الطبقية) بهذا المعنى الذى عرفه تطور المجتمعات الأوروبية، ومع ذلك فمن أجل (المذهب) فلا ضير فى أن يذهب (المنهج) العلمى إلى الحجيم!!.

ولقد بلغت الجرأة بالكاتب إلى أن يجعل الرسول صلى الله عليه وسلم (زعيم اليسار) فهو فى رأيه - (زعيمه وواضع مبادئه الأساسية) ويعلق أحد الكتاب الإسلاميين<sup>(١)</sup> على هذه الفرية الهابطة بقوله: ولكن كيف قبل الرسول (اليسارى) هؤلاء اليمينيين فى صفوف الإسلام وكيف أثنى عليهم وبشرهم بالجنة؟.

لقد كان بين السابقين إلى الإسلام أبو بكر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله، كما أسلم على بن أبى طالب ، وزيد بن حارثة وأسلم بعد ذلك خباب بن الأرت وعمار بن ياسر وصهيب وبلال ...

(١) انظر د / محمد فتحى عثمان : التاريخ الإسلامى والمذهب المادى فى التفسير - الدار الكويتية ص ١٠٨ . وقد ذكرنا سلفاً أن الأستاذ أحمد عباس صالح قد ترك هذا الاتجاه!!



وهكذا سبق للإسلام أغنياء وفقراء ، أقوياء وضعفاء ، أحرار وموال  
عرب وعجم ، تجار رأسماليون وعمال محترفون... فأين كان اليمين  
فى هؤلاء؟ وأين الوسط وأين اليسار؟ وكيف أغضى زعيم اليسار عن  
ومسولية اليمينيين، أو كيف تقبل اليمينيون ثورية اليسار. (١)

وأيضاً كيف كان هؤلاء على عهد الرسول كتلة واحدة يضحي غنيهم  
بماله لفقيرهم ويشترى غنيهم بماله العبيد، ويرفض أحدهم ثلاثة  
أضعاف الربح فى تجارة قدمت له ويهبها لله : أى للفقراء والمساكين  
مؤثراً ما عند الله!.

أليس من الهبوط العقلى - باسم المذهب - أن ينسج بعضهم خيالات  
يخلعها على الآخرين حتى ولو لم تكن هذه الخيالات بنت بيئتهم أو  
مناسبة لحقيقتهم؟!.

ويمضى الكاتب - دون اعتبار للمنهج - لتصنيف الصحابة إلى يمين  
ويسار، وإلى رمى اليمين من الصحابة (وزعيمه عثمان ، وعبد الرحمن  
ابن عوف ، وطلحة) وغيرهم بالتآمر على اليسار لدرجة أنه حملهم  
مسئولية قتل عمر بن الخطاب الذى جعله الكاتب زعيم الوسط الذى  
انتهى ثوريا... ولهذا قتل بمؤامرة يمينية أدواتها أبو لؤلؤة  
المجوسى...

وهو تحليل متهافت يعتمد على أوهام مختلفة اختلاقا لكى يستفيد  
منها صاحب (المذهب) على حساب أية (منهجية علمية)... أما أبو  
ذر وعلى بن أبى طالب - رضى الله عنهما - فهما أبرز زعماء اليسار

---

(١) المرجع السابق ص ١٠٨

وبعد جهاد ومعاناة نجح اليسار فى تولي السلطة عندما وصل على إلى الحكم!!.

وهكذا نجد أسلوبا فجأ فى تشريح الوقائع، وهو أسلوب لسنا بسبيل الرد عليه فلقد عالجته دراسات كثيرة وأصبح الآن كلاما ممجوجا لعل أصحابه أصبحوا يخبجلون منه...

لكن هذا الغزو المادى لتاريخنا - فى كل مراحله ولا سيما الفترة الأولى - ظهرت له تكتلات متعددة متعاونة مستخدمة قدرتها الجلية، ومستخدمة الثقافة التقليدية التى حصر كثير من أصحاب الاتجاه الإسلامى أنفسهم فيها.

ولقد عرفنا من هذه التكتلات اليسارية فى المجال التاريخى كثيرين من بينهم «جلال العظم» صاحب نقد الفكر الدينى والدكتور «محمود إسماعيل» صاحب الحركات السرية فى الإسلام والدكتور «محمد خلف الله» صاحب الفن القصصى فى القرآن والدكتور «راشد البراوى» مترجم رأس المال، (وجلال العالم)، (ومحمود أمين العالم)، (ومحمد أنيس) (وصبحى وحيد)، (ومنح الصالح)، (وعبد العظيم رمضان)، (ونديم البيطار)، و (حسن حنفى)، و (عبد الرحمن الشرقاوى) وغيرهم.

والحقيقة أن غزو (التفسير المادى) لتاريخنا، لم يقف عند حدود الماركسيين وحدهم، ولا عند حدود اليساريين الذين يقولون إنهم يرفضون الماركسية فى العقيدة ويقبلونها فى الرؤية للتاريخ.. وإنما تجاوز الغزو هؤلاء إلى قطاع كبير من المؤرخين الذين أصبحوا - بحسن نية غالبا - يركزون على تأثير العوامل الاقتصادية،

ويبالغون في قدرتها، حتى لتكاد العوامل الأخرى العقيدية والفكرية والأخلاقية والاجتماعية وغيرها من العوامل الفاعلة في التاريخ تتضاءل أمام هذا التركيز على دور العامل الاقتصادي ... مع أن التاريخ يمدنا بعشرات من الحركات التي ضحى الناس فيها بحياتهم وأموالهم وأوطانهم في سبيل القيم الأعلى للإنسان في هذه الحياة ... وبالطبع لا يعنى هذا - من جانبنا - إنكارا لدور العامل المادى أو تقليلا لشأنه!!.

### تاريخنا والتفسيرات القومية :

لقد تعرض تاريخنا - كما تعرضت كل قيم حياتنا - لتغيرات قومية منحرفة كل منها يحاول كسب كل المعالم الوضيئة في تاريخنا لحساب قومه ، ورمى الأقوام الآخرين الذين أسهموا في صناعة الحضارة الإسلامية بكل الأخطاء ... فقومه - وحدهم - هم المبدعون، وإليهم ينسب كل الفضل، بينما الأقوام الآخرون هم الخاطئون في كل موقف، ولا فضل لهم في هذا التاريخ ولا هذه الحضارة الإسلامية ... ونكتفى في هذا المقام بضرب بعض النماذج لنعرف كم كانت هذه التفسيرات القومية متجنبة وبلهاء.

إن فتح المسلمين للمغرب والأندلس كان فتحا إسلاميا، ولم يكن فتحا عربيا (قوميا)، ذلك لأن من أبسط الأمور البديهية أن القائمين به كانوا من جيل التابعين (ومنهم صحابة) ولم يكن يحرك هؤلاء إلا الإسلام، وقد كان الأعجمى الصالح عندهم أفضل من العربى الكافر والفاسق، حتى ولو كان هذا العربى عم النبى عليه الصلاة والسلام.

ومع هذه البديهية فثمة حقائق أخرى تاريخية تدين تشريح الفتح الإسلامى للمغرب بمبضع قومى عربى أو غير عربى ...

إن الفتح الإسلامى للمغرب لم تستقر أقدامه ويدخل مراحل حاسمة

من الفتح إلا بمساعدة عناصر غير عربية، فمن المعروف أن فتح المسلمين للمغرب هو أطول الفتوحات الإسلامية وقد تعرض للانتكاسات في عدد من المواقف، فقد قتل (عقبة بن نافع)،... ومُصاحبه أبو المهاجر دينار، وذلك سنة (٦٤هـ) وقد قتل زهير بن قيس البلوي سنة (٦٩هـ) ونلاحظ في مقتل زهير أنه كان بعد أكثر من أربعين سنة من بداية الفتح، فالحالة كانت كما نرى غير طيبة، لكن أقدام الفتح في الحقيقة لم ترسخ على نحو مؤثر إلا من خلال عدد من المواقف أهمها:

١ - سياسة أبي مهاجر دينار في تأليف البربر مما جعل «كسيلة» زعيم البرانس يسلم، ويسلم قومه البرانس بإسلامه، وبواسطة مساعدتهم دخل أبو المهاجر دينار أرض الجزائر حتى تلمسان ولم يكن أحد قبله قد استطاع دخول الجزائر. أي أن أبا المهاجر فتح الجزائر بواسطة الجزائريين البرانس أنفسهم.

٢ - سياسة حسان بن نعمان في تأليف البربر بعد أن هزم في موقعة الأوراس أمام الكاهنة، ومن ثم سخط البربر على الكاهنة بعد أن أحرقت مزارعهم، وانضموا جماعات وأفراداً إلى حسان، حتى أولاد الكاهنة أنفسهم، مما مكن حساناً من هزيمة الكاهنة سنة (٨٠هـ) في موقعة قابس.

٣ - أيضاً فإن حساناً إلى جانب استعانته بالبربر ضد الكاهنة استعان بهم في تحضير البلاد، كما أنه استجلب إلى المغرب ألف أسرة مصرية (حرفية) للنهوض بالصناعة في البلاد.

فالفتح الحقيقي للمغرب كان بواسطة أجناس إسلامية متعددة على رأسها أصحاب البلاد أنفسهم فكيف يسمى بالفتح العربي للمغرب إذن؟! إنه فتح إسلامي وكفى!!.



وأما فتح الأندلس فقد كان إسلاميا حتى بلغة الإحصاء، فإننا لو أحصينا الجيش الفاتح الذى ذهب مع طارق بن زياد (البربرى) . . . سواء السبعة الآلاف الأولى أم الخمسة الملحقة بها فسوف نجد أن معظم الجيش ليس عربيا إلا إذا كانت كلمة العروبة مرادفة لكلمة الإسلام حسب الاستعمال التجوزى الكريم فى حضارتنا قبل أن تظهر لعنة القومية التى تحارب الإسلام وتتنكر له باسم العروبة عند العرب، والطورانية عند الترك، والفارسية عند الفرس.

ولو استعرضنا تاريخ الأندلس فسوف نجد أن العرب كانوا كغيرهم لهم أخطاؤهم وحسناتهم . . . وقد دخل زعمائهم فى صراع مرير على الحكم، متلفعين برداء العروبة المستعلية مثل الصميل بن أبى حاتم، ويوسف الفهرى، وبقية الولاة الذين ظهروا فى النصف الأول من القرن الثانى الهجرى، ولعل مذابح الحكم الربضى (١٨٠ - ٢٢٠ هـ) البشعة للمولدين أبناء البلاد الأصلاء لن تشرف كثيرا المتمسكين بأمجاد النزعة القومية، كما أن الفتنة الطائفية (٢٩٩ - ٤٢٢ هـ) التى كانت من أسباب سقوط الأندلس، والتى سقطت فيها طليطلة قلب الأندلس . . . هذه الفتنة تحمل فيها العرب كغيرهم أوزار الاغتصاب والنهب والاستهانة بالدماء، ولم يقدموا نموذجا أفضل من غيرهم، وقد كادت الأندلس تسقط لولا أن قيض الله لإنقاذها رجالا من صميم صنهاجة المسلمة العظيمة (البربرية) - من ناحية الأصل - بقيادة البطل العظيم «يوسف بن تاشفين» رضى الله عنه وابن عمه العظيم أبى بكر بن عمر اللمتونى!!.

إن الاعتزاز القومى باسم العروبة لن يخدم العرب ولا المسلمين، وإن من شأنه دفع الأجناس الأخرى للبحث عن دورها فى الحضارة الإسلامية، مع أن الدور كان مختلطا لا فضل فيه لعربى على عجمى إلا

بالتقوى ، ومن الصعب توزيع هذه الأمجاد ، لأن الآباء لم يتركوها بطريقة تقبل القسمة ، ولأنهم لم يقوموا بها لكي نتوزعها نحن ، بل قاموا بها حسبة إسلامية خالصة لله بصورة تعاونية تكاملية . . . . وأيضاً لقد قاموا بها لنضيف إليها لا لتقاتل عليها . واستعمال المصطلحات الشعبوية ليست في مصلحة الأمة العربية ، ولقد استطاع أعداء الإسلام من مستغربين ومتمركسين استغلال هذه النزعة فحاولوا فصل العرب عن المسلمين بمبضع الاستعلاء الكذوب!! .

إن مجال حصر التجنيات القومية على تاريخنا تمتد إلى كل أجزاء هذا التاريخ وحضارته ، فأصحاب المنظار القومي ، لم يستحوا عن طمس الحقائق وتلوينها بمنظارهم القومي ، حتى شخصيات الصحابة والتابعين وحتى صلاح الدين الأيوبي الكردي وسيف الدين قطز المملوكي ، والسلاطان عبد الحميد التركي ، كل هؤلاء يقومون بمقياس شعوبي فيحاول بعضهم سرقة أمجادهم لحساب العرب ثم مع ذلك لا يستريحون إليهم - حتى مع حسناتهم - لأنهم لم يكونوا في النهاية عرباً . . . . وحتى موقف السلطان عبد الحميد رضى الله عنه من فلسطين ، والذي كان من أشرف المواقف في التاريخ الحديث ، حتى هذا الموقف يهال عليه التراب ، ولا يكاد يذكر ، ويصور السلطان عبد الحميد بصورة مزرية لا تليق بعظمته وسمو دينه .

إن النظرة القومية لتاريخنا - بخاصة - نظرة عمياء ظالمة عنصرية لا تخشى الله ولا تهمها الحقائق الموضوعية . . . . وإن خطرها في تأجيج الفتن كبير ، وأنا لا أبرئ أصحابها من الخضوع للأهداف التمزيقية حتى ولو لم يحسوا بذلك .

إن الحضارة الإسلامية وتاريخها ميراث لكل المسلمين لا يمكن تقسيمه ، ومن أراد الرفعة فليتقدم بهذا التراث مضيفاً إليه وبانياً فوقه .

أما الذى يريد التمزيق واغتصاب حقوق إخوانه وشركائه فى صناعة هذه الحضارة، فهذا فى حقيقته عدو مبين لهذه الخصائص العظيمة المتكاملة التى صنعها كل مسلم ، عربيا كان أو مولى ، تركيا أو بربريا أو فارسيا ، فكلهم ساهم فيها باسم الإسلام ، وكلهم أرادها إسلامية ، ويجب أن تبقى - وسوف تبقى بإذن الله - إسلامية إلى يوم القيامة .

LIBRARY OF ALEXANDRINA  
A. C. 1881





## قضية هذا الكتاب

ليس التاريخ بالنسبة للأمة مجرد ماضٍ انتهى بل هو بالنسبة لكل الأمم الحية جزء من النهر الكبير الذى تتدافع بين شطآنه أمواج حضارتها فيكاد الماضى ينسكب فى الحاضر ويكاد الحاضر يذوب بين معبرى الماضى والمستقبل .

وفقه التاريخ ضرورة لكل أمة تريد أن يبقى لها دور متميز فى التاريخ ، وهو بالنسبة لأمتنا الإسلامية شرط من شروط وجودها ؛ فنحن موصولون بركن من أركان تاريخنا نطلق عليه اسم « السيرة النبوية وعصر الراشدين » ، كما أننا لا نستطيع إغفال الفتوحات الإسلامية عبر القرون أو إغفال ما أعطته لنا هذه القرون من علوم إسلامية فقهية وقرآنية وعلوم لغوية وأدبية وتجريبية .

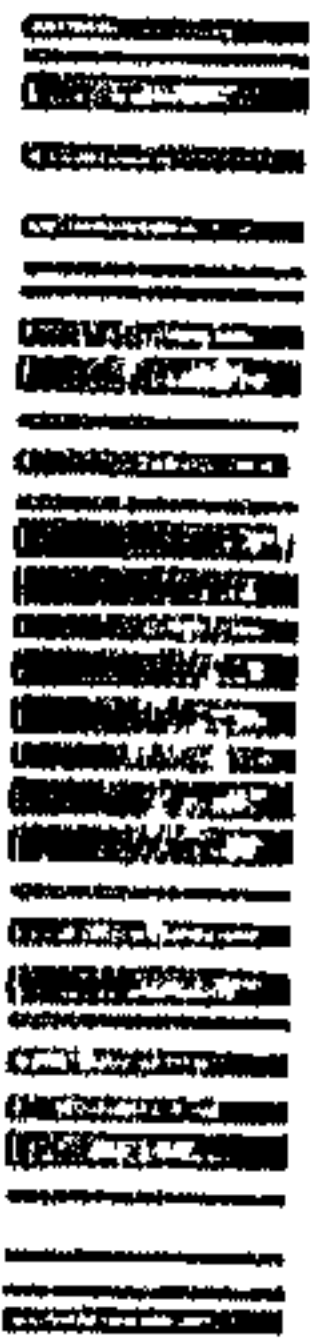
والكتاب الذى بين أيدينا يطرح قضية خطيرة هى : « قضية تفسير التاريخ من وجهة نظر إسلامية » تؤدى إلى تأصيل وعينا بتاريخنا وحضارتنا بحيث تطرد كل التفسيرات التى تقود إلى عناصر دخيلة من الشرق أو الغرب .

لذا يسر دار الصحوة أن تقدم هذا الكتاب إسهاما منها فى المضى بمسيرتنا الحضارية نحو المستقبل المأمول بجناحي الأصالة والتحديث .

وعلى الله قصد السبيل ،

الناشر

Bibliotheca Alexandrina



034773

دار الصحوة للنشر والتوزيع - القاهرة



الإدارة: ٧ ش السراى - أول المنيل ت. فاكس: ٩٨٧٩٢٤  
الفرع: حدائق حلوان - بحوار عمارات المهندسين ت ٣٧٤٠٠٧١